إتيل عدنان

يبوس

وقصائد أخرى

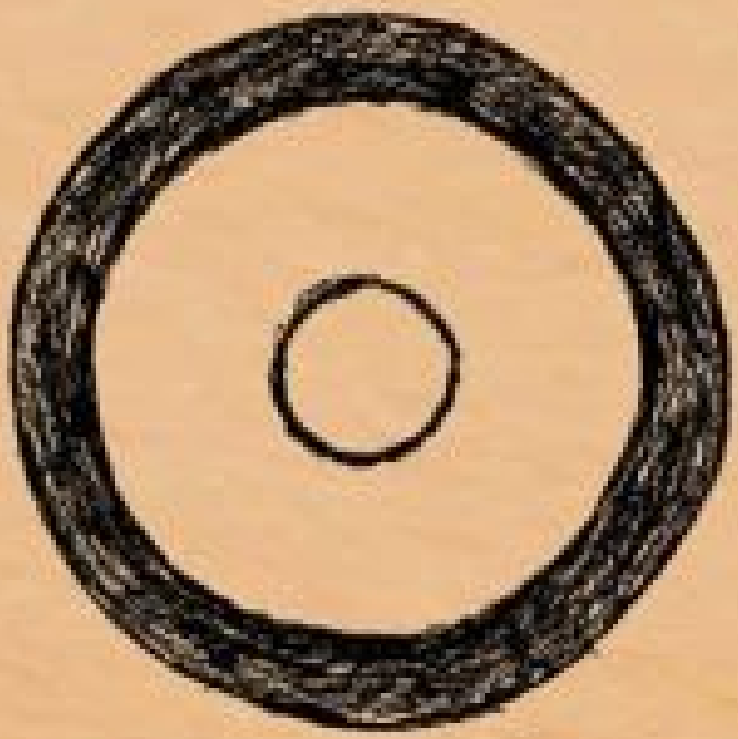

السوسنة

إتيل عدنان

يبوس
وقصائد أُخرى

دار التنوير

جميع الحقوق محفوظة ©

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم

سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني - هاتف وفاكس:

009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف

(البستان سابقًا)–الدور 8–شقة 82

هاتف: 0020223921332 فاكس:

0020227738932

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تابعونا على

Daraltanweer@

Dar Altanweer

daraltanweer

إتيل عدنان

يبوس
وقصائد أُخرى

دار التنوير

جميع الحقوق محفوظة ©

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني - هاتف وفاكس:
009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف
(البستان سابقًا)–الدور 8–شقة 82

هاتف: 0020223921332 فاكس:
0020227738932

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تابعونا على

Daraltanweer@

Dar Altanweer

daraltanweer

(١) يبوس

«... وسار الملك ورجاله إلى أورشليم
عند اليبوسيين سكان البلاد...
«وقال داوود ذلك اليوم: كلّ من
يصعد الأودية ويقتل اليبوسيين
حتى الأعرج والأعمى اللذين
يكرههما داوود
سوف يسفى رئيسًا ورائدًا»
«التوراة، الكتاب الثاني، صموئيل الفصل الخامس،
الفقرة السادسة».
القلب الوضيع الذي آلمه البرد
تقيأ مصيرنا على إسفلت طرق غريبة
وملأ السماء بوحل حقدنا
لقد استيقظ يبوس
أيتها العيون الحانية في ليالي باريس
لقد أغمضناك في حشرجة هذا النسيان
واستعدنا رأفةً دون رحمة لحبٍّ دون وجه
يفعل في جذور فقراتنا
فعل الأسيد
يبوس النائم يستيقظ
(كم استفادوا من بطئه)
يبوس يتقدّم موكب الملائكة
يفتّت زهر الغرنوق الذي يغطي قبره
اية رائحة من الشرق على العالم!

له عينا صقر
في بطنه طائرة
وعلى شعره أفاعٍ نائمة
(إنه ينام)
أيتها المروحيات المغطّاة بالدم
خبّئي وجهك لأن رائحة الجثة العربية
تحمل الشقاء!
أرسلي إلينا مناشيرك: شالوم ونابالم!
إزحف على بطنك
تقدّم من البئر
إشرب إستنفده إسبح في النفط تحت الأرض
واصعَد أسودَ
يبوس سيعود ليوزّع الأرض إلى الأرض
ليغزو القمر بلا سلاح
ليقتلع الشمس من مدارها
ويقلب مدار الجنس البشري
يبوس:
نموذج شامان إبن اليهودية الحيوان
ساكن شجرة النخيل
يبوس نخلة بألف غصن
يزحف يبوس تحت الأرض كربيع يعشق امرأة
يبوس عاشق الأرض العربية
يُحصي الورود البرّية السائرة إلى تدمر
يبوس:

ها حنان رجولتك الليلي يستيقظ
وها تزهر الصحراء!
إنه رعد الذين لم يرحلوا أبدًا
وفاءً لشعوب كنعان التي كانت هنا
قبل داوود وستبقى بعد دانيال
لقد اختار أبناؤك خيام الوحل، الأطفال المتورمين،
النساء المحترقات (ولا منفى لأمّ...)
كم هو حارّ المحيط
وما أسرع البحر تحت خطوات الهاربين
أبناؤك يا كنعان ظلّوا هنا.
يبوس:
كستك سلالة الأنبياء باللعنات لكنك سكنتْ ذاكرتهم
وأنتِ الدودة التي تقرض عظامهم
سوف تأتي
بعد آخر الآخرين، سيّد الإشراق الذي يتحدّى النور
ومحمولًا على هوائيات إذاعاتنا ستحرق جدران تجلّياتك
وسيكون شعبٌ لا يُرى كالهواء
أكثر سيولة من الماء
مسكونًا بالنار أكثر من إشعاعات الهيروشيمات الجديدة
هيروشيمتنا.
يبوس:
تركونا نتعفّن في ظلّ نسائنا الفاحشات

نُخصي رجالنا ونبيع لحوم أجسادهم
بثمنٍ بخس في أسواق لندن
أشعلنا شموعًا حين كان علينا أن نقاتل
وأنشدنا الأغاني في كرومنا المحروقة
لأننا خفنا...
أشجار التين مغطاة بالجراد
والعدو يأكل كل ما يتحرّك
جئتم يا لصوص الصلوات
تكسون الأرض بالقبور الطريّة
وعلينا أن نحرق أسلافكم كي نطهّر الليل
يقول يبوس:
«لا سماء لنا ولا جحيم
بل كواكب تدور»
إنه درّب جيوشه في حقول الشوك
وها هو يقودها اليوم في سهول المناجم
حيث المطر من بترول
إن جراحة البترول
تقضي بأن ننتزعه من أحشاء أمّنا
لكي تُمطر من جديد: عصافيرَ ليليّة أحرقتها الشمس
لا تحسدوا رجالنا بعد اليوم
النابالم صيّركم أخوة
جئتُ من أرضٍ عموديّة، أسلافي ولدوا في منابع الأنهار الكبرى،
غزانا مزوّرو التاريخ ولصوص السراديب الأرضية

ولدينا فاسدون أحياء متربعون في مجالسنا
أكثر أذى من أفاعي البحر
التي التفّ بها السندباد...
ثقة ربيع تحت الأرض
انبعاث أحياءٍ، لا أموات
لقد حبسوا عذراواتنا في الجرار
لكي يترمّل «مالك علولة»
في نظام يبوس:
التموجات تنتظم في البحر
الآلات تتوقّف عند خَبب الأحصنة
المستشفيات تطلّ على حدائق النحل
ريح حلب، بدءاً من الرباط، تعلن العاصفة
والأطفال يعرفون الكاهن البابلي منذ الولادة
يا مركب الزجاج الكبير
في المحيط الأحمر أضعت حدود هذا العالم
وتهتَ في اللانهاية
(ليبوس أخ أسود، أول مؤذن للنبي، مغا يتهجيان
الثورة معكوسة
آه يا رُسل الرسالة!)
كلّ رجلٍ ينشطر إلى اثنين
الشامانيون الجزائريون يمشون حتى البحر الأحمر
والجوع يجعلهم يلتهمون خفاف الجِمال
فلسطين، أيتها الغريقة!
يجب أن تصغي إلى أنين وديانك في الليل

حيث للموتى دموع أيضًا
ستشربين جرعةً كبيرة من الدماء
وستنبعثين والغثيان في قلبك
تُقيسين الأرض بأظافرك
أرضٌ كنعان تاجٌ من الشوك
يبوس هو المرشد
أبله القرية والفرس السوداء
إنه السيف والرصاصة المزهرة المتفجرة في بطنه
إنه مسار ليلي يذهب إلى ما وراء القمر
حتى زُحل الذي يبكي
أيتها الكواكب سوف نغزوك
لأننا غير قادرين على العودة إلى قُرانا
يبوس هو أبو السيكلوب
نموذج شامان إبن الأم الحيوان
ساكن شجرة النخل
يبوس نخلة بألف غصن
إزحف على بطنك تقدّم إلى البئر
إشرب استنفده إسبح في النفط تحت الأرض
واصعد أسودَ
يبوس هو العودة الذي يوزّع الأرض
ويقول إن المادة للجميع
موثّقًا الروابط
معيدًا إله الشمس رغ إلى الكون
أيتها المدينتان الميتتان في القرن الحادي والعشرين

بيروت وتل أبيب!
لكي نبقى أحياء في هذه الأيام
يجب أن نتعلّم كيف نحصي عذابات صرفند
في المنحدرات الجيولوجيّة لآسيا الغربيّة
عقبان تشكر السماء على وفرة غذائها:
الأموات العرب في تلك الصحراء
أكثر عددًا من الحصى!
تدرّبنا على الألم في الجزائر
عشنا لحظات سعيدة
وعلينا أن نبدأ من جديد
ضجيج...
سوف نفتّت جبالنا
لكي تفحي التجليّات
وتخرج الحقيقة من بئر
يبوس يأمر الظلال التي تتبعه
بأن تنحلّ في برافين صيدليّات الحي
لقد هبّت الريح...
يا شمس الماضي
زغ شمس مردوخ
رواد الفضاء غزوا القمر
لكي تعودي في عظمة ترملك
وحيدةً على مراكبك
أيتها الوحدانيّة الهندسيّة التي يعلنها يبوس:
الجوع

الذلّ
العطش
الخوف
المرض
الوحدة
الجنون
أحمال مراكب شمسيّة
في المنطقة الحرّة من مرفأ بيروت
حيث سفننا سيارات مصفّحة
يقودها رجالنا على دروب السماء
الشقاء بوقٌ للجاز يصيح في ساحة البرج...
في طريق العودة (لمدار القمر- الأرض)
على سكّة الحديد الكونيّة يقول يبوس:
«رأيت الأرض كرةً مغناطيسية
تحرق جوانبها
إنه نشاط إشعاعي شمسي أصلي
لغته ذريّة كهربائية مغناطيسيّة
تقول:
أنا مركبة فضائية وأخوتي بالدم (البدوي الأولي)،
على المذابح الزئبقية حيث نُحروا، سيولدون من جديد
لأنهم حقيقتي الوحيدة».
يبوس الكنعاني وباني مدينة أورشليم يقول للمصلوب:

«تعذبث ثلاثة أيام وتعذبث ثلاثة آلاف سنة».
(الفدائي كتابة لاصقة بالأرض،
يندفع إلى الأمام جريحًا يلهث
لائمًا بلعابه جرح الأرض المفتوح،
وفي احتضاره يلمح مطرًا من النيازك...
في الموت، ينسى أنهم جفّفوا الصهاريج
كي نأكل الديدان ونعتبر السعادة رثاءً
... لكننا غيّرنا موضع السماء
وهم لا يعرفون أن الريح عصفور يسبح)
كان شرف أطفالنا يغوص غامضًا في أنهارنا الهادئة
وفي أعماق سبخةٍ قابلث شعبي وقرعت أجراس الحريّة
الآن أعلن لكم:
النابالم
الجوع
خدعة العدو
الطائرات المحلّقة على علو منخفض
الديناميت في الليل
التعذيب
وموتى أكثر عددًا من يرقان مستنقعٍ عفِن
البراءة جريمتنا
أعلن كذلك:
عودة الموتى
بنادق يحملها أشباح

نباتات لا تنبت إلّا في الشتاء
دبابة من قصب السكّر ستخترق الجبهة
وجنودًا في السنة الألفين
الفوضى الخلّاقة هي عنادنا الإلهي
ليبوس ملايين الجذور
رؤوس لا تُحصى
وجسد يتكاثر
إنه جميعنا وكلّ واحدٍ منا
منذ بزوغ الزمن
يبوس هو الشعب على مدى الأزمان
أعطني له أن يولد، أن يكبر، أن يموت
أعطني له أن يأكل، أن يعرى، أن يسبح
أعطني له أن يقتحم المحيط الخامس، أن يملأ كوكب الزهرة بنفثهِ
وأن يجعل أورانوس آهلًا بالسكّان
سيخرج الناس من مجارير الجرذان لأن العالم واسع
وحين يغذي الرغيف الواحد كل القبيلة
سيقول الأب لابنه: أنت أخي...
رأيت قرى جيلي ذات الأسماء الأنثوية- شمعى، القنيطرة، قلقيلية-
تُجهض مواليد أمواتًا:
أيتها الكواسر ذات العيون الغريبة
يا شاربي القاز
لا شيء وافرًا لديكم إلّا الحقد

وعلى مسالك لا تجد فيها الأفاعي ما تأكل
أجبرتم نساء «أريحا» على مضغ الألماس...
العرب إذًا ليسوا إلّا سرابًا يدوم!
في بدء العالم أعدم يبوس
لكنّ عينيه دجلة والفرات، وسورية أحشاؤه
والأردن ضلعه الجنسي، وفخذه الطويل وادي النيل،
له قدمٌ في مراكش، وقلب نازف منقوش في مكّة،
وشعرٌ لا يزال يسترسل على جبل صنين
وبدا تخطيط كيانه في يوم هيروشيما
كالعرَق الناضح على حائط القدس
أعرف
القمر الكامل
الحزن المتباطىء
أقواس قزح مسمومة
الوجوه المخدوعة التي تملأ شاشات الأخبار
الموجّهة نحو سماء الكواسر
كما لو أن هناك مخلّصًا منتظرًا آخر غير قاذف القنابل
المنفى شامل.
أعرف
التوابيت السائرة نحو الجامع
في مدينةٍ تُسقى ورودها بالغاز
والعواصم الأجنبيّة التي تفرز أكاذيبها كنحلٍ ميت
والقمر الكامل الذي يُطبق براثنه على القبيلة
الحرارة الملتهبة لملك القدس الأول- رائد فضاء

عائد من القمر الذي سكنه وحيدًا، تاركًا كتابات مبهمة
على جدران الفوهات- لا تزال لاصقة على وجه الثلج
الكوني
يا شاربي البول يا شاربي الدم يا شاربي البترول
أيها الأغنياء الجدد بالنابالم والتنكيل
«غلغامِش» سيغرز سيفه بين عيونكم
المدينة المتشحة بالريح والدموع والأشعة فوق
البنفسجية
ترتجف...
فلسطين أمّ الأمم مصابة بوباء
ممجّدة بأورام شمسية على وجهها
واغتصابات متكرّرة في أحشائها
أورشليم مدينة بناها اليبوسيّون
وأطفالها المكدّسون تحت الخيام
يتفوّهون بشتائم تلوّث الهواء:
فلسطين مصابة بسرطان
ثلاثة عشر أخًا في منظّمة الأمم المتحدة،
ثلاثة عشر نذلًا مخصيًا برائحة الزيوت
الناضحة من تحت الأرض:
أيها الكوكب الذي تقيأته الثريّات
آه فلسطين!
القلب الوضيع النازف من سيره على الأسلاك الشائكة
في المخيّمات، باحثًا عن غذائه في الشوك وهواء
الجبال،

هو منفى لا ينتهي في نهاية المطاف
إلّا باستنزاف الخلايا الشعبية،
فيتقيأ الاغتصاب، النهب، والعدو الشرس:
يا أمهات بلادي، لا تكنّ غربانًا متربّعة على قبور
بل سنن إلى المناجم
فأرضنا عطشى منذ آلاف السنين
وللماء طعم النفط.
الطفولة العابقة برائحة العنب
ستحظم أيامها على أراضٍ حجريّة.
لقد جاؤا بحديدهم الشالومي
يهتكون خرمة طرقاتنا
بعنصريّةٍ تشبه التفاح المهترىء
يا وردةً حجريّة في «قصر هشام»،
شمالي «أريحا»، أنت رادار نسلنا
والعين التائهة الساهرة على آثار المقاومين الكهربائية
فتوأمكِ السماوي يُدفىء عظام موتانا
في نهرٍ تحت الأرض، يُحصي يبوس مراكبه
وممسكًا بيد «الملكة»، يصعدان معًا إلى أورشليم
القمر العاهر يسخر من
الغزاة العنصريين
أيها اللصوص القدامى، يا مُرابي جوع الآخرين
قد تسرقون بصيص النور من عينٍ ثُعمى
ملوككم نهبوا شِعر كنعان
في مزاميركم حرّفتم رؤيا «أخناتون»

وعلى ألواحكم نسختم شريعة «حمورابي»
القمر في نكباته أكثر حنانًا
من نسائكم المجنّدات
يمكنكم أن تحرقوا الأدغال التي تنمو من جديد
في ضمير طائرة وداخل جزمة جنديّ يتعفّن
أما نحن فليس لدينا إلّا الرؤية الكاملة
لكي يكون الألم العربي مطلقًا
ونبوءته مستحقة تحت الشمس...
في الليل تحت الخيام، يحلم الفلسطيني أنه طريق المجرّة
وفلكيّو بابل يقودونه في دوّامات: الأعاصير الكونيّة مألوفة لديه
ما يزيل تعبه
يبوس يخبىء لنا:
التعذيب الذي هو كشف للروح
التعذيب الذي يوحّد الرفاق أكثر مما تفعل آلية الرغبة
التعذيب الذي يصيّر الناس أشباحًا متداخلة
ويعطي للذين فقدوه معنًى لمصيرهم
لكن كيف نُعلن الانتقام والعدو يتنامى
وكيف نصلّي لله حين له معنيان
بدون ندم وبدون لواقط
فمن نعاقب حين السعادة كارثة
وإلى من نشكو الشرّ والناس لا يفعلون غيره...
حين لا يبقى إلّا الجراد قوتًا للأعداء

وتنضب آبار الإسفلت
حين ستخبر الأرض موتاها عن مؤامرات الأحياء
حين تغتسل القبيلة ببول الجمل وتُغتصب النساء
في هواء حزيران الحار
حين تصبح رؤى الصباح أكثر من رؤى الأصيل
وتنمو شجرة في يومٍ واحد
حين السير على الأقدام يربط «أزمور» بِـ» صرفند»
وحين لا أحد يستجدي الغيب ولا الكلاب الحارسة هذا العالم
حينئذٍ يخرج الأجداد من مِرآتهم
يسير العرب عراةً
ويكون صباحٌ جديد
في الريف الجزائري تحزر جيل من الأفيون القديم
وانكشف وجه يبوس المزدوج: وحيدًا ومكشوفًا ونبيًا غامضًا،
إنه الشعب بأسره منذ الخليّة الأولى العائدة إلى ما قبل التاريخ
والأنهار التي ستتوالد منها
الثورة الدائمة هي النبوءة الدائمة
جئنا في وضح النهار ولم يرنا أحد
وفوهة المدفع مدخلنا إلى الجنة
هناك حديقة يابسة ووردة مفروسة في صفيحة
البرجوازيّات الفاسدات يسكبن عطرًا من باريس
على جثة طفلٍ من مخيّم «الكرامه»

لكي يحمين ليلهنّ الماجن من النسيم المفشي الأسرار
الصعود البطولي سوف يخلّص الحديقة
هناك وردة يابسة في حديقة ضيّقة كصفيحة
البرجوازيّات الناحلات كالجثث
يتظاهرن بالبكاء على طفل ميت في مخيّم» الكرامة»
لكي يُخفي ليلهنّ الكسيح رؤوسهنّ الفارغة من كل رأفة
الطفل الميت سيرقد في الموت
والصعود البطولي سيخلّص الحديقة
في أساطيرنا كانت للشمس أسنان
يبوس، الشمس السيّارة، يرتعش في أمطارنا النادرة
يصعد التلال على طرقات مزدوجة ويقول:
«الحنان الليلي لأجل الذين يأكلون الشوك
عيون البدويّات هي أعماق فوّهات ثائرة
ثقة أجساد نساء يدوسها عدوّ لا يزال يتملّق جلّاديه القدامى
لا يسعنا أن نفعل مثله، فأرض فلسطين مزروعة بعيون ترفض
أن تُغمضها...
أورشليم ليست مدينة داوود
أورشليم مدينة يبوس.»
يا وطن القبور ويا غبارًا في جذور قمحنا
لا نجد فيك إلّا عظام جثث صلبة
مثل أحجار الزمرّد وصباحات المقابر!

ثقة وردة لن تموت
وسيخرج النسيان بالنار من الذرّات
كي يُعطينا شعرَ الشمس من جديد
عطشًا نرويه بالماء الصافي...
أيتها القاذفات الكونيّة
نظّفي جبالنا من الرمل
ليمشي رجالُ الغد على صوّانٍ ورديّ اللون
ويشربوا
الينبوع الأسود
هذا الجسد المرقّط بثقوب
المحروق بالكبريت
المعرّض للمنغنيز
على فمه جراحٌ من إسفلت
وقُبلات من بترول
إنه لاجيء بدون ملجأ
أحمل إليكم آلهتكم القدامى
السابحين في تيّارات كونيّة
أحمل إليكم حجارةً ستتسلّق عليها أقمار
أرواح أسلاف وحرّاس حرفيين
أحمل إليكم آلهة جددًا ذوي أجساد
أحمل إليكم المستقبل المنفتح
وبغثّ الفقراء
وأحمل التحرير والحريّة
إنني بدويّة هائمة في كونٍ جليل

(... ووهبناكم موت يبوس
كي تتحزك الشمس...)
في بلادنا الجافة
سيكون المطر رصاضا
رصاضا إلى الأبد.

(٢) القطار السريع بيروت ← جهنّم

البشريّة تمضي إلى المقبرة

بوثبات سريعة

حصانان يقرآن من ماوتسي تونغ

قلقي

البطولة

الخبز والورود

الزهور والحرائق

موت جمال عبد الناصر

يُعاش في عالم من الجاز

يعزفه كمان Mingus الجهوري

صدماتٌ إلى الأبد

ماذا يفعل الذهول

سوى ألمٍ في الرأس

تلك الليلة في كاليفورنيا

على طريقٍ أشجارها سوداء

كان رجلان يحفّان وجههما على شجرة

رجلان ينتظران...

سائقو التاكسي يبوّلون وقوفًا

على طريق دمشق- بيروت- دمشق

رحلة غير مشرّفة...

أسكن بلدًا صغيرًا جدًا

وعالمًا كبيرًا في أوج التطوّر

أحبّ النساء المتحجّبات

كعقتي في الأمس
وأحبّ اللواتي يذهبن شبه عاريات
إلى مفارق الطرق الأميركيّة
حيث تنمو المخدّرات: يتمدّدن كسراطين
على ظهر نجمات البحر
أحبّ الرجال الذين يغطّون رؤوسهم
ولا يُظهرون إلّا عينًا واحدة، لا العين العمياء،
بل تلك التي تنظر إلى الداخل
من ألفي سنة حضارة
ما احتفظتْ إلا بالجاز
لأنه أسود: لعنتْ كلّ الألوان وجفّفت البحر
لأننا هنا لا نأكل إلّا الرمل...
نحن جلّادون
صباحٌ بلا ظلال
أيّ صباح هذا!
أنت لا تعرف إذًا أنني أسكن سان رافايل
بجوار سجن «سان كوينتن»
ذلك الكابوس الذي تنازع عليه الشمس
غريقةٌ في دموعها
الخليج عند أقدامها
والقمر مُشرق دومًا فوق شَعر امرأةٍ منتحرة أربع مرّات
وعلى جزيرةٍ واحدة، غير مسكونة:Angel Island
وفي السجن
«جورج جاكسون» و«سرحان سرحان»

مسمارٌ بارد يغرز
في اللحم
عشرون ألف قتيل في عمان
عشرون ألف مسمار بزّاق حول رأس
الملك
عشرون ألف شبح
وزنٌ ثقيل يُفسد الهواء
إنها جريمة الخريف
خريف المجرم
راية النبوءة ترفرف فوق السفن
أطلقْ الرصاص!
ولينغرزْ الإعصارْ في الثقوب
وكنهرٍ جارف، يحمل الملائكة الخائفة
إلى قمم صئين!
تحزّك، إيها الشعب الحقير
فلْترمى ليموناضاتك في البحر
ولْينهدمْ الكازينو الذي ترتاده
ولْتحمل جيادُك أصحابَها إلى تحت الأرض
حيث كانت بابل قديمًا تطبخ سمومها
التحرير مثل ربيع ينبت دائمًا تحت الأرض
كذراعين مفتوحتين بمستوى التراب
لا عشب على هذه الأرض
«أورانوس» كان أبي
وأمي الملكة «زنوبيا»

وأنا السمكة الأولى التي قُذفت على الشاطىء
وبقيت مصفمة على الحياة
أيها الأغبياء، هل تعرفون أن «رامبو» كان بيننا منذ نحوِ قرن،
من بيروت إلى عدن،
وأن الشاعر «فؤاد غبريال نفاع»
أكزر، فؤاد غبريال نفاع،
هو بيننا
مصلوب بفضل جهلكم
محروق بالأزوت
نعم يا أهل بيروت
ناموا واشخروا
وليحرق الأزوت غابات الصنوبر تلك،
التي ترمون على أقدامها نفاياتكم ومناديل الورق
البلد أضحى مزبلة، مستودعًا للبضائع الأجنبية الكاسدة
التي لا تُباع في أيّ مكان آخر
وطن «تموز»
جرحٌ مفتوح للذباب
وأبناؤه الفاسدون
يلمّعون أحذيتهم بأيدي قطعان من الشحاذين
لقد استعرتم أقنعتكم
من الخنازير والأبقار
ثلاثة زلازل حدثت في القرن الثالث

ثلاث مرّات ذكرت بيروت والرابعة آتية!
العالم بدأ يولد
الشعب بدأ يصل
الشعب واصل
النسر حمل الرسالة إلى القبيلة
الجمل حمل الرسالة إلى القبيلة
الحوت حمل الرسالة إلى القبيلة
من كلّ أنحاء العالم بدأوا يصلون
الثورة أقتربت...
في نيويورك أقول تبًا لك يا أميركا
في موسكو أقول تبًا لك يا ستالين
في الرباط أقول تبًا لك يا الحسن الثاني
صباح الخير أيها الشحاذ
صباح الخير أيها الفدائي
صباح الخير يا محمد الرؤيوي
صباح الخير يا أيها السجين
في المساء
عندما تتحرّك الظلمات المصنوعة من وحل
أراقب المومسات
ممنوع على النساء أن يفكّرن
أراقب خادماتنا
ممنوع على النساء أن ينمنّ
أراقب عروساتنا اللواتي يأوين وحيدات إلى السرير
ممنوع على النساء أن يتمدّدن كالغزلان

في حقول السهب العربيّة الشاسعة
في الحقول
على السهب العربي
على وجه الصحراء
على طرقات مدننا
تلك المدن- البائسة- المسعورة
لا إلا أناس عاجزون
وحكومات لا تنتهي
الجريمة تعوي أقوى من عواء الضباع
بابل بابل
أعلنْ قياماتك
وموتك...
سوف ننتقل من المقاومة
إلى الانتصار على النفس
ثمّ إلى النبوءة
ومن النبوءة إلى الإلهي:
والإلهي هو الشعب- الذي- يتألم
الرفيق دوستويفسكي في بيروت
يسكن في فندق Orient-Prince
يأكل في مطعم Horse-Shoe
يسبح- أتريد أن تضحك؟- في «السان جورج»
ويتثاءب، أتتصور أين؟- في الـ A.U.B
ومن أجل أن يستعيد سمعته
يعدّ الأخطاء المطبعية لجريدة النهار

الرفيق دوستويفسكي
لا يحبّ إلّا القرآن
لا يعرف إلّا الرحمة
الرفيق دوستويفسكي أوقفه الأمن العام
فراح يضحك... ويضحك
وبثّت ضحكته إذاعات العالم بأسره
أنا التقتها على قنال ١٤ في كاليفورنيا
كم أودّ لو أثقب السماء
وأطلق الصاعقة
وأسقط الطوفان
على هذه المدينة!
بكلّ برودة، عهّرنا حتى النباتات
المدينة تصرخ الألم، ألقا بوجه عقاب
فيما السفينة ترفض أن تُبحر
في منتصف التاريخ
في قلب السداسيّ
عند قاعدة الصرح وملتقى الشرف
يحيا ويموت
جمال عبد الناصر
وعن قبره،
أشهدَنا على أول معجزة
أود أن أحدثكم عن مَرابطينا:
صبايا عاريات
نائمات بالقرب من موتانا...

في جبل عمان يجب البحث عن القيامة
وفي مخيم «الوحدات» يجب البحث عن الربيع
وعلى عظام «أبو سليمان» يجب أن تُكتب آيات
القرآن
أيتها المدينة الخيالية أكثر من الهواء
مع أنك حبلى بآثام هذا العالم
في خمّاراتك يحترف الغرباء
خيمياء الخيانة
أحبُّ نسيم تشرين
والسموات الحمراء التي تعلن الحروب القريبة
وفوق البحر، أحب فوانيس الغاز
التي تضيء الصيادين والزوارق...
يا شارع «الحمرا»!
ضفائرنا العصبيّة تضمر عند سماع اسمك
فيصبح الدم أبيض ويستحيل الماز شبحًا
وتفوح الليرة اللبنانية برائحة النتانة
وأنا أجثو أمام الأطفال
الذين نبيعهم من أجل لذّةٍ ليليّة
لذّةٍ بعد الظهر
أو عند الرابعة فجرًا
ليس للساديّة ثمنٌ فكلف في بيروت
أيتها المدينة!
كم من جريمة تُقترف في خمّاراتك
كم من كحول في أحواض بيوتك القديمة

كم من فجور مالي في آذان المؤذن
أيتها المدينة الأكثر شهرةً من الجحيم
المشرّعة لعبور كلّ عابر
البكز لكلّ الصفقات
يا هدفًا للحبّ الليلي
لقد سقمتنا بطهارتك التي لا تُداوى
العاصفة هبّت الآن
أبوابها قُرعت
الجاز تجلّى
الهذيان تفشّى
والساعة الساعة توقّفت...
أصبحنا عراةً أمام القدر
وأكل «غلغامِش» عشبته السريّة
يا أهل بيروت
المطمورين بالأرقام
العائمين في الزبدة
المخبولين بأفكار سيّئة
تذكّروا ليلة ١٨ أيلول!
ملاك مجهّز بمحرّكات كان قد اخترق السماء
حطّموا مراياكم
استديروا صوب صنين
تطلّعوا إلى الشمس التي تشرق
جديدة
استلّوا سيوفكم

شقوا بطن الأرض العربيّة من جهة إلى أخرى
ولتسطغ الحريّة!
لديّ رثاءات أتلوها للمعادن:
لا كبريت، لا منغنيز، بل كلورور بوتاسيوم
في مشروبات الحمير
وكِلس مأتمي على المنازل
الرسامون خادعون: يغطّون ريشاتهم في أوعية الأسيد
الشعراء خادعون: يتغنّون بالورود فيما المدينة حديقة إسفلت
الحكّام خادعون: حبال سرئهم أسلاك هاتفية تربطهم بواشنطن وفلاديفوستوك
الكهنة خادعون: ثقة صفقات تجاريّة في المدارس وضمائر مغطّاة بالهوام
دع التحرير يحرّر!
أيتها المدينة!
إنك على سفح الجبل الوردي
حيث كلّ واحد منا أسطورة
بين كلّ متشرّدين واحد يغزوه القمل
يا له من مخملٍ على بشرته الطريّة
وشَعرٍ حيّ على بدنهِ
شبّانٌ يخرجون من سينما «أمبير» بشفاهٍ متنفخة
الإستمناء في العتمة رغبة وراثية راسخة في البطن
رائحة الفيلم تقوم مقام المرأة

صحراء الحبّ الكبيرة هذه
ستلاحقهم حتى القبر
لأنهم لا يعرفون أن يحبوا إلّا أمّاهاتهم...
أعرف شوارع يغتصب فيها رجال البوليس
كلّ من يمشي على قدمين
أبناء عائلات كريمة يمرون أمامهم
في سياراتهم السريعة
عيونهم كابية كحجرٍ بارد
أودّ أن أعلن تسارعَ الكواكب العجيب
وديناميّة الكارثة: يا أبناء كنعان،
إنكم تموتون الآن للمرّة الأخيرة
استقلْ قطارًا يا صديقي
مسافرًا إلى عمّان
«إنه المكان الوحيد على الأرض
الذي يقدّم لنا حياةً سرّيّة
ويقترحها على وجه الحياة»
هذا ما يقوله Antonin Artaud
مصيرنا هو مصير الهنديّ الأحمر:
عصابات البترول ستدمّر البنوك التي شيّدتها
مثل مداخن تلفظ البخل في سماء متفجّرة
لنا صباحات بلا ذكريات
إني أتوقّع عاصفة جارفة
خزّانات مياه فارغة
ودملة الجنوب، مثل قربة نملٍ،

ستقضم الأرض الحزينة
أرض الجذ الأول
تصبّبنا عرقًا باردًا في وضح الظهيرة
رأينا لصوصًا خفافا
صادفنا على الرصيف رائد فضاء مجنونًا
يعتمر شعرًا مستعارًا:
لخادماتنا بشرة تلتهب
وأكياس من نيتروغليسيرين تنفجر على جبين عشاقهنّ
على مرأى من العدو الذي يضحك ساخرًا
بيروت مدينة ساحرة
تأثيرها على العالم يجز له الشؤم
ماذا نفعل بالبراءة
سوى أن نبرزها دملةً على الوجه
ذات ليلةٍ في كاليفورنيا،
مضاءة بنور غريب،
على طريق الشاطىء حيث الأشجار سوداء،
كان أحمد- العنيف وخليل- الماجن يحفّان قضيبهما
على شجرة لأنهما كانا خائفين، خائفين من القطار
السريع الذي يقلّ أمثالهما بأقصى سرعة
سرعة الموت
في الأودية القاحلة للمدينة
المحترقة بفوسفور أميركي
منذ مليون سنة غادر الهاشميون مكّة

في بطن أول دينوصور
لينتهوا إلى هذه المجزرة!
منذ مليون سنة، منذ أن حكم
على عمان البشاعة الترتع على عرش
«أبوكاليبس» البترول
تجولث طويلًا على الكورنيش
ومعي الرفيق «الغزّالي»
أخذت زبوتًا من الكنائس الإغريقية
وكرّسته أميرًا على المدينة
الرفيق الغزّالي يسكن في فندق Métropole
يأكل في مطعم «البرمكي»
يتحدث مع أصدقائه عن المسرح اللبناني
في مقهى Wympy's
يتسلّم رسائله في مقرّ الإنتربول
ويرسل رسائله بواسطة حوت مسافر
في الأحياء الشعبية
يعزفون على الناي للتخفيف
من أذي المواطنين...
الإله «شمش» عاد
إلى إربيد
إلى الزرقاء
إلى أور وإلى البصرة
الأموات يعودون ليقاتلوا من جديد
لأن الأحياء جبناء!

يا أهل بيروت
أكتتم بلباس البحر
أو مستورين بالريش إذا لزم الأمر
استقلّوا أول قطار سريع
(استقلّوا فقرات ظهوركم واستأصلوا
الاستعمار كما يُستأصل القيح)
حتى يكون
الهواء
حتى يكون
الماء
حتى تكون
الأرض
حتى تكون
النار
استقلوا قطار بيروت... قطار جهنم
استقلّوا السريع...
تأخر الوقت كثيرًا
القطار يصفر، يُقلع، يبصق
استقلوا القطار السريع... إلى جهنم

(٣) قبر ثوري من اجل عمّان

١

كنت ذاهبة إلى عمّان
غير أن السيارة انزلقت
وثقبتْ جدارًا
كان هنديٌّ أحمر ينامُ
وقد أيقظته
صرخت: ثمة إبادة جماعية جارية
إبادة جماعية للعرب تقوم بها أميركا
صرخت.
لم يجب الهنديّ الأحمر مطلقًا:
أمامه رمال ملوّنة
علامة الشمس
صليبٌ معقوف
ورواقٌ قرأتُ عليه
اسم مایاکوفسکي
هل يمكنكم أن تنتظروا
من هؤلاء الذين
أبادوا الهنديّ الأحمر
غير أن يبيدوا
الأصفرَ والأسمر
وأنت وأنا
والمجزّة،

ذات يوم؟

٢

ما أجمل الموتى
يتمدّدون على الخشب في أكفانهم الضيّقة
أكثر جمالًا، أولئك
الشهداء الذين لم يعرفوا كفنًا
بين الجزائر وجبل عمان.
كأنهم ساروا في الليل،
وما زالوا يسيرون
بين الجزائر وجبل عمان،
جاؤوا ليغتسلوا في النهر الذي وجدوه بلا ماء
نهر خياناتنا
وهيجاناتنا الكسيحة
ونصرنا الجنائزي...
سلامًا، يا آلاف القتلى
من أجل غداءٍ
للسلطان!

٣

أمس مات الرفيق لينين
قال مایاکوفسكي
أمس مات مالكولم إكس
قالت زوجته
أمس مات جون ف. كندي

قالت الإذاعة

أمس مات مارتن لوثر كنغ

قال غاندي

أمس مات فدائيٌ في عمّان

قال ابنه

أمس مات رمسيس الثاني

قالت الـ «سي. آي. إي»

أمس مات جمال عبد الناصر

هل قلت

هل قلنا

هل بكينا...

(٤) بيروت ١٩٨٢

آه يا بريّة القلب الناعمة
يوم ماتت بيروت تحت
وابلٍ من الورد الأحمر!
«أمّ كلثوم» فارقتنا:
تعودت الغناء للملائكة والأحصنة...
ثم تبعها فلسطينيون صامتون في موكبٍ
كما في جدرانيات أجدادهم.
الوحوش ليست في حديقة الحيوانات...
و: باء بيغين
الذي وظّأ أسطورة الشل
مع ثلاثة بلايين دولار
لكي يقتل طفلًا
لكي يقتل غابةً من الرجال
جاء وقتٌ ترفض فيه الكلمات
المستعارة أن تغادر هوّة أحزاننا.
لوجوهنا تجعّدات أكثر عمقًا من مهاوي
وادي روم
وعظامٌ انسانيّة لوّثت
شوارع بيروت،
عظامٌ ممتزجة بفضالة الحيوانات...
فلنسمِّ أطفالنا:
دير ياسين
قلقيلية

صبرا
وشاتيلا
لئلّا ننسى...
ما اعتقدتُ أبدًا
أن الانتقام شجرةٌ
تنبت في حديقتي.
الأشجار تنبت في كل الاتجاهات
والفلسطينيون أيضًا:
مقتلعون
وبعكس الفراشات
دون أجنحة،
ملتصقون بالأرض
يرزحون بحبّ أراضيهم
ومآسيهم.
لا شعب يقضي عمره
خلف القضبان
أو تحت الأمطار
إلى الأبد.
رفاقهم هم شعراء من روسيا وأميركا
وهم هنود غواتيمالا...
أيها البركان المطفأ
أين هي جدرانك
إذا لم تكن محترقة،
وأين هي النار

إذا لم تلتهم الجبال
بمرارة أكبر من الطوفان؟!
لن نبكي دمعًا
بل دمًا.
حين خلقنا ملاك الصحراء السورية
ظهر بلباس الريح: لا أوراق
في الأدغال اليابسة
بالجزيرة العربية
عندها نادينا عازف الناي
في القبيلة
وطلبنا منه
أن يُسمر أمواج المتوسط:
الأمواج أجابتنا بنشيد جنائزي.
شاركنا في جنازات عديدة
في سنوات عديدة
وحده الثلج
يمحو خطايانا
ولا ثلجَ في أريحا.
أحمد ومحمد
يدقان على الباب النووي:
«تعالوا ننقذ العالم، قالوا،
مثل واجبٍ ملحّ،
لنكنْ مجانين».
لا مقاعد شاغرة

للذين لا هويات لهم
في تكسيات بيروت
ولا اسمَ حتى لأحمد.
أحمد أزرق مثل شجر الموز
في صيدا
أصفر مثل البرتقال الذي
زرعه والده في يافا
إلّا أن محمدًا مضطرب
يهلوس
كلّ ليلة
عند سماع الراديو
ويتقيأ الأخبار.
تعالوا ندفنه بصحبة موكبٍ طويل
من الأزهار.
هل عرفتم؟ هل سمعتم؟
هل قالوا لكم إن الناس
كانوا يلهثون
في الشوارع
بحثًا عن أقدامهم لا عن أحذيتهم؟
ولا في الكابوس بل
أمام التلفزيون؟
الشمس ساطعة
في لبنان
لدرجة أن الكاميرات احتجبت...

هل عرفتم؟ هل قالوا لكم
إن جلود الأفيال نبتت فوق عيوننا
وشعرًا أسود خلف الآذان؟
آه كم هو جميل الهواء
بين غيمتين
فوق جبل صنين
خلال أيام تشرين!
إلّا أن المجزرة حدثت في العتمة.
كالوقت الذي قضاه المسيح في قبره.
اقتضى ذلك منهم ثلاثة نهارات وثلاث ليالٍ
أجل، الرومان واليهود
ينتظرون خارج
سور الحزن الكبير
الذي يطوّق مخيمات الفلسطينيين
يا أيها اللاجئون الذين لا ملجأ لهم
حتى في القبر
بل في مجارير بيروت!
لا تحثوا الخطى صوب الهلاك
توقفوا
وتأملوا البحر.
أنا أتكلّم من مملكة الموتى
وأنظر إلى بهاء السماء
غير المدنّس،
إلى أمنا

نعرف مقدار عطش القمم
وجفاف القلوب.
لا لغة لوصف الوحش الآدمي.
لا نطلب شيئا
لا نأمل شيئا
بعد نشرة الأخبار
نستحم ونستفسر عن الطقس.
تسلّقث درجات جبل «تمالباييس»
على عكازات لرؤية شروق الشمس.
إلّا أنني وقعت في مجارير «صبرا
وشاتيلا» المفتوحة.
البشر أكثر من الحشرات
والمبيدات لا تنفع.
إذن
ستكون هناك تصفية نهائية،
تصفية تلؤ تصفية،
فوق شواطىء الأرض المجنونة.
أيتها الغيوم أقول لك بأن تحذري:
إنهم سيطلقون النار عليك.
صنوبرة تقف أمام بابي
كملاك الهلاك
إلا أنني قلت له:
أنت لا تحرس إلا ظلّي.
أشجار الموز في صيدا

زرقاء ومجروحة
والعدوّ تمزّن على حرب الدبابات
في الحقول
لكي يمنع الحصاد.
لا تنسوا لون البحر.
أيها الشعراء اختفوا
أو غيّروا العالم!
مبارك هو الذي يقاتل الطائرات
بقبضة!
مبارك عدسه وقبره!
اكتبوا:
سنبعث أحياء!
السماء رماديّة
مثل رماد مراكب الحرب
والأشجار خضراء من اليأس
نحن محاطون بمشسعٍ من المياه،
والمشيئة الربّانية ما عادت تتوجه إلينا
بالنار والكلمات.
إلا أن بيروت تحت الحصار
دعت نساءها لمتابعة الرقص،
نعم
رقصة هزّ البطن
البطن- الأم
الأمّ- البطن

وظلّ شرفها مصانًا
بيروت رقصت تحت وابلٍ
من القنابل الفوسفورية.
كبرياء هذه المدينة أغنية عربيّة.
كثبان الرمل البدائيّة
تستعيد مسيرتها من جديد
أمنا الأرض كفنْ.
تركتمونا مع أناشيد الموت
لكنها أجمل من جنودكم.
تركتمونا تحت المطر مطعونين
بالسكاكين في البطون
لكنّ طفلًا ميتًا من «عين الحلوة»
يستحق منا القتال
حتى تبصق نساؤكم
دمًا
في نهر الأردن.
لن نبذر الحبّ فوق المقابر
ولا فوق كفّ يدي
نحن غاضبون
غاضبون كالعاصفة.

(٥) هي بيروت من جديد

هي بيروت من جديد
بيروت على الراديو
والسلفادور على التلفزة
هي صبرا وشاتيلا في الذاكرة
و«أوصلتان»[1] في القلب
هي بيروت من جديد
عندما اعتقدنا أن بيروت
قد أخلدت للراحة
لكن بيروت لن تنام
حتى تنام السلفادور
وسان فرانسيسكو لن تتناول الطعام
حتى تشبع أرتريا
ولن تموت السلفادور
هي بيروت من جديد
في ماناغوا، في أنتيغا
وفي مدن الصفيح في مارسيليا
وهي حيثما يزعق الراديو وأعني أينما كان
في هذا العصر الألكتروني
يتعذّب رجل الكهف في أحشاء السلفادور
لكن ثمّة أنفاق تقود إلى مقرّ القيادة العامة للأمل
يوجد أمل في السلفادور
لأنه يوجد شعب، يوجد أمل في السلفادور
لأن الكرامة لها اسم

هنا.
لأن الشرّ عظيم وداهم
هنا.
حتى صار القساوسة اليسوعيين
ثوّارًا لأول مرّة في التاريخ.
هي بيروت من جديد
في ذلك اليوم وهذا اليوم وكلّ يوم
ولأن الموز والمنغا
ينموان كلّ يوم،
لأن الشمس تشرق بعناية
كلّ يوم
تحت القذائف،
يولد الأمل في كلّ يوم
في شرايين
السلفادور النازفة
ويولد مسيح مخلّص[2]
في مكان ما هناك،
ويرتقي هيكل آلهة الهنود الحمر،
مخلّص سوف نؤمن بقيامته
فقط عندما جميع شعوب الأرض
وكلّ النبات
وكلّ الحيوان
وكلّ الاكوان
تحقّق قيامتها

والقيامة كرامة
أعني
الكرامة حريّة
القيامة للفقراء خبز وبيت
القيامة سلام للجميع
إلى الأبد
إلى الأبد.
هي بيروت من جديد
لأن دور الأيتام تنمو بأسرع من نمو
المدارس
في السلفادور،
والشمس تغيب حيث لا تطالها أيدي
الشعب.
وما من أفقٍ غير أفق الإرهاب.
هي بيروت من جديد
لأن البحر انتصب واقفًا
وأطلق ابتهالات لا متناهية
هي بيروت من جديد
لأن الشعراء يموتون
ولا يستسلمون
لأنهم يتحدثون عن الأمل
ولا يتقلدون كلماتهم
مثل قلّادات من اللؤلؤ،
لأن الشعراء يرفضون أن يموتوا،

يحملون أملهم على ظهورهم
ويتنقلون من بابٍ إلى باب
مثلما النحل من زهرةٍ إلى زهرة
ليوزّعوا رسائل التحدّي
على قلوب الناس.
وهي بيروت من جديد
ماء في الأفق
مقابر مكتظّة أكثر من فنادق
طائرات تحمل من الأخبار أبشعها
ومواكب لا تنتهي من الحزن.
وهي بيروت من جديد
لأن الناس يتراكضون
لتبقى بطونهم وعقولهم
منتظمة في الطابور
يحملون شرفهم،
متاعهم الوحيد،
ويعدّون موتاهم
مثلما تعدّ القروش
في مدن السلطان.
وهي بيروت من جديد
لأن الناس يتمتمون صلواتهم
على أمل أن تصل إلى مسامع مريم
العذراء
والناس يعلمون أنهم واقعون في الفخّ

ويتذكّرون غطاء طاولة السفرة
ووجبة الطعام هناك في البيت،
قبل أن ينتهوا إلى المشرحة.
وهي بيروت من جديد
آباء يقتلون أبناءهم
وأبناء يقتلون آباءهم
قبل أن يشوّه الذباب ملامحهم.
وهي بيروت من جديد
عندما كانت المصارف وحدها الحي الباقي
والمال يتكاثر
كلّ ثانية
بمعدّل تكاثر الجرحى
وهي بيروت من جديد
تفتح سماؤها صدرها الوسيع كلّ ثانية
لتستقبل الأبطال المجهولين
الطالعين من شوارع السلفادور.
والسلفادور على التلفزة
هي صبرا وشاتيلا في الذاكرة
و«أوصلتان» في القلب
هي بيروت من جديد
عندما اعتقدنا أن بيروت
قد أخلدت للراحة
لكن بيروت لن تنام
حتى تنام السلفادور

وسان فرانسيسكو لن تتناول الطعام
حتى تشبع أرتريا
ولن تموت السلفادور
هي بيروت من جديد
في ماناغوا، في أنتيغا
وفي مدن الصفيح في مارسيليا
وهي حيثما يزعق الراديو وأعني أينما كان
في هذا العصر الألكتروني
يتعذّب رجل الكهف في أحشاء السلفادور
لكن ثقة أنفاق تقود إلى مقرّ القيادة العامة للأمل
يوجد أمل في السلفادور
لأنه يوجد شعب، يوجد أمل في السلفادور
لأن الكرامة لها اسم
هنا.
لأن الشرّ عظيم وداهم
هنا.
حتى صار القساوسة اليسوعيين
ثوّارًا لأول مرّة في التاريخ.
هي بيروت من جديد
في ذلك اليوم وهذا اليوم وكلّ يوم
ولأن الموز والمنفا
ينموان كلّ يوم،
لأن الشمس تشرق بعناية
كلّ يوم

تحت القذائف،
يولد الأمل في كلّ يوم
في شرايين
السلفادور النازفة
ويولد مسيح مخلّص
في مكان ما هناك،
ويرتقي هيكل آلهة الهنود الحمر،
مخلّص سوف نؤمن بقيامته
فقط عندما جميع شعوب الأرض
وكلّ النبات
وكلّ الحيوان
وكلّ الأكوان
تحقّق قيامتها
والقيامة كرامة
أعني
الكرامة حريّة
القيامة للفقراء خبز وبيت
القيامة سلام للجميع
إلى الأبد
إلى الأبد.
هي بيروت من جديد
لأن دور الأيتام تنمو بأسرع من نمو
المدارس
في السلفادور،

والشمس تغيب حيث لا تطالها أيدي
الشعب.
وما من أفقٍ غير أفق الإرهاب.
هي بيروت من جديد
لأن البحر انتصب واقفًا
وأطلق ابتهالات لا متناهية
هي بيروت من جديد
لأن الشعراء يموتون
ولا يستسلمون
لأنهم يتحدثون عن الأمل
ولا يتقلدون كلماتهم
مثل قلّادات من اللؤلؤ،
لأن الشعراء يرفضون أن يموتوا،
يحملون أملهم على ظهورهم
ويتنقلون من بابٍ إلى باب
مثلما النحل من زهرةٍ إلى زهرة
ليوزّعوا رسائل التحدّي
على قلوب الناس.
وهي بيروت من جديد
ماء في الأفق
مقابر مكتظّة أكثر من فنادق
طائرات تحمل من الأخبار أبشعها
ومواكب لا تنتهي من الحزن.
وهي بيروت من جديد

لأن الناس يتراكضون
لتبقى بطونهم وعقولهم
منتظمة في الطابور
يحملون شرفهم،
متاعهم الوحيد،
ويعدّون موتاهم
مثلما تعدّ القروش
في مدن السلطان.
وهي بيروت من جديد
لأن الناس يتمتمون صلواتهم
على أمل أن تصل إلى مسامع مريم
العذراء
والناس يعلمون أنهم واقعون في الفخّ
ويتذكّرون غطاء طاولة السفرة
ووجبة الطعام هناك في البيت،
قبل أن ينتهوا إلى المشرحة.
وهي بيروت من جديد
آباء يدفنون أبناءهم
وأبناء يقتلون آباءهم
قبل أن يشوّه الذباب ملامحهم.
وهي بيروت من جديد
عندما كانت المصارف وحدها الحيّ الباقي
والمال يتكاثر
كلّ ثانية

بمعدّل تكاثر الجرحى

وهي بيروت من جديد

تفتح سماؤها صدرها الوسيع كلّ ثانية

لتستقبل الأبطال المجهولين

الطالعين من شوارع السلفادور.

---

1 أوصلتان: بركان في السلفادور

2 السلفادور بالإسبانيّة تعني المنقذ أو المخلّص

(٦) جنـيـن

وفي الليل
حين توقُّفَ انهمازُ النمور والشثر
واكتفى اللصوص المسلّحون بما حصدوه
وأقفرت المقاهي المزّة
وانفتحت لروادها أبوابُ المواخير
واحترقت فتائل المصابيح
وعاد الكهنة إلى غلمانياتهم المعتادة
وارتعش المطر خوفًا من قنابل تسابقه بأسرع من الومض
نشّب دخانٌ كثيفٌ
طالعٌ من عظام تكلّست بطينًا
وكنا ظننّاها هجرتنا
فإذا بها ترجع إلينا كالنسيومًا من فلسطين
ملأ حلوق جلاديها الذين
من يأسهم
هرعوا إلى أمهاتهم يغتسلون
لأن أسماعهم ثقلوست
بعدما تناهت إليهم أبواقُ أريحا
فاختلطت عليهم السنواتُ والنجوم
الأحصنة والسراطين.
وأبى الليل أن ينهمر على رؤوس الخراف
ورأينا البرق يتمازج بغيماتٍ خبلى دمًا ودموعًا.
أخذت العناصر تخاطب موتى ما عادوا يُصغون

وما عاد للشعوب من صوت.
مشينا على رؤوس العوسج والشوك والقرّاص
واستنفدَت عيونُنا أبجدية الظلمات
عندها
بعد انحسار المطر
هبط ملاك لم يُحسن أحدٌ تسميته
راح يحصي للبعض جراحهم
وللبعض الآخر أجزاءهم المبتورة بسكين مطبخ.
ملاك دون كل ذلك
في سجلٍّ ذهبيّ من وخل.
هكذا تـمدّد البحر مرتجفًا من هلَع
وأمَر مَوجَهُ بالتحرك
فسَمِعَ صليلَ أدواتِ بربرية
وقسَمَ على قتل الحياة والموت
في أيّ مدى من نار ودموع.
لم يخرج أحدٌ حيًا من مخيّم المحكومين
واندلع برق ورعد في بيوت مكتظة بالأولاد.
ارتدَت التعاسة شكل امرأة
إنما لم يتوقف أحدٌ لأن كل ما كان حيًا، مات.
كَـفَـنّـا الموت بغلَم كبير
ودَفَـنّـاهُ في المقبرة الجماعية التي باتت
مدينةً مَن كانوا كل صباح يتناولون جافةً حلوى الذكريات.
لن يعود لنا

أن نرسم أسطرًا مستقيمة
بل أن نطلب
من الربيع تدوينَ مذكرات الحرب
ومن الخريف الاصطفافَ مع الخوَنة
وسنضيءُ نوافذنا بالشمع الشاعل.
فلا تطلبوا من الخفافيش
أن تدلّكم على مسالك ثعالب الصحراء
هيئوا شاحناتٍ تُقلّنا إلى المسلخ.
هناك سيكون احتفالٌ بقدورٍ
ملأى خرفانًا مسلوقةً بالحامض والدماء
في مأدبةٍ، كالتي أصِفُها، احتفاءً بالضباط المنتصرين.
الشمس حجّبت وجهها
حبوبُ اللوز قاسية كالخشب
الإعصارُ جرَفَ الأسِرّة في رعب معربد
دنيء وطاعن.
أسلحة القتل باردةٌ أكثر من الهواء المحيط بها
تؤلم ولا تُخيف
ففي جِنين ألَمٌ من نوع آخر
ألَـمٌ تُبدّلَ.
تبدّلَ كنا ننتظره فجاءنا باتجاهٍ معاكس
وبات لنا الحقُّ بالحقد.
إنما لا نرتجلنَّ الاستنتاجات السخيفة.
فنحنُ لم نعُد من هذا العالم
الغاباتُ تلبّدت

وحيواناتُ الليل تلد وحوشًا
والشرُ طرق الباب قبل الفجر ليلةَ انحسر المطر
الجاذات تدور في الفراغ
الأحصنة تهرع إلى الفرَق ولا مبرر.
نعيش في دائرة كابوس مكوكبة
ثغيظ جمال هذا الربيع المششح
بأشجار مزهرة
بجبالٍ بـليلَةٍ تتوّج هاماتِها غيماتٌ شبه شفافة
بمسطحِ الخليج الملتمع
بنسيم كان يدغدغ صخوَنا
حين تتيه عيوننا على الطريق من الغرب إلى الشرق
عبر التلال الوردية
وبـبـؤسِ ناسٍ تحاصرهم الدبابات
محبوسين في نظرات جلاديهم الخارجين من حدود
ليست سوى ملامح أولى من سجونهم المتعددة.
كل هذا يُغيظ جمالَ عالم يسكنه جنونٌ آخر
غريبٌ عن يأسنا.
ثمة مواجهةٌ مأساوية
بين موت البعض
والحياة المتعدّدة لآخرين هم موجات مجلّدة سعيدة
لبحرٍ يهدر بسعادةِ أنه موجودٌ
قبل ولادة وعينا اليائس.
ثمة فارق بين ما يُثلّف وما لا ينفك يولّد
نعيش في أغوارٍ سحيقة أقرب إلى ليل دود الأرض

وإن كنا لا نرضاها
فأينما كان
يمتدّ الضباب على مناطق صناعية
ينبعث فيها غاز من مداخن مصطفة على خط الأفق
يملأ أفواه عمالٍ ضروريين
وإن غير مرغوب فيهم
فيحرق ذاكرتهم
ولا يعودون يذكرون ما كان لهم قبل إبحارهم
من أسماء وعناوين.
وفي عزلتهم الأخيرة تظهر لديهم أمراض مستعصية.
هناك، على قمة جبلي الوحيد
عصافير تزقزق أنشوداتٍ مرمزة
تطير أزواجًا أزواجًا
تشق الهواء برفيف أجنحةٍ وفرحٍ
وفي الرؤوس التي باتت سجونًا
تصبح الأفكار قيءً غازات سامةٍ وتكتفي بذاتها
فتصبح مهمتها الأولى للبقاء أن تجد عذرًا للموت.
لذا تخلت الطبيعة عنا
وبات جمالها مستحيلًا علينا
فما نقوله عنها: انعكاسٌ باهتٌ لحقيقتها.
صرنا غرباء عما كانتْهُ يومياتنا
صحيحٌ أنْ كانت لنا طفولة صافية
ولكنْ... ماذا حلّ بهذا الأمس؟
القَتَلة لا يكتفون بالتصويب على الجسد

بل على اللامرئي الذي كان منبع سعادتنا.
في هذه الأثناء
يهرم الدهر بمليارات سنوات عبرَت
وبنجوم تصارع من أجل البقاء
فالالتماع لا يكفي ليُبعِد الموت.
أعرف أنْ لا عيون للمادة ولا تنفُس منطفئًا
وأنْ تحت المقابر ترابٌ نضر.
رأينا بُسُطًا منسوجةً بألوان نباتية
كان لون أحدها صلصاليًا كوجه قتيل في جِـنِـين
لا تُقلقوا
لن يكون لكم أن تروا ذاك البساط ولا هذه الجثة.
في هذا الوقت
بينما جنود العدو يتغلغلون في الظلام
كان يهرم الدهر
معنا يهرم، ومثلَنا.
ففي ختام كارثتنا
سنحمل الله نفسَه إلى هلاكه
وفي انتظار ذلك
يسيطر بعضٌ ويزول آخرون...
في المخيَم مخيم آخر
لأن درجات الجحيم تتمازج
ونحن جلوسٌ في محطة الراحة والتأمل والزهد.
الحزق الأبيض يزحف إلى الأجساد
وكل جسدٍ سجين ألَمِه

الألَم يَغِلُّ في العظام
كما العظامُ في الجسد
كما الجسدُ في بيوت مسوّرة بـجدرانها.
لم يتولَّ أحدٌ تعبئة ساعات الحائط
وفوق الأبواب التي باتت اليوم حِطَمًا في خراب
كانت كتاباتٌ عفويةٌ وأحيانًا رسومٌ.
اليوم امتزج بالدمِ حبزُ المحابر
لذا أوحلت الكتابات الجديدة
وشكّلت الملابس وقطَعُ الأثاث أغطية قاسية
فوق أعضاءٍ متناثرة.
تساءل الليل إن كان لائقًا
أن يُـخبِئَ تشوّهات هذه الوحشية
ثم قرّر:
يبقى معلّقًا فوق
عاليًا في الفضاء كآخِرِ إرثٍ للمحرومين من الإرث.
أراد الصمتُ أن ينزل
وإذ اختفت جميع الأدراج
سقط بكل ثقله فبلَغ الأرض بوَزْن رصاص.
عرفه بعض المحتضرين فنادوا أمهاتهم لنجدتهم
لكنهنّ كنّ نائمات في الغرفة المجاورة
رؤوسهنّ مقطوعةٌ وموضوعةٌ على المخدة.
تبقّع بلمسها منديل السهراوردي.
بعد أسابيع على هذه المجزرة
كان شاب يقرأ في كتابٍ عن بناء المقابر

لكنه لم يجد بقعة خالية لدفن الموتى
فتخلّى عن الكتاب والتحقَ بالمقاومةِ
لا يعرف أحد مكانه ولا إن كان بعدُ حيًا.
فثمة ما هو أقلُ من الموت
وهو ما أزالته ممحاةُ أولادٍ عن اللوح الأسود
لوح هذا الوهم الأخير الذي نسميه التاريخ.
حين كان البرد يجتاح بيوتنا غيرَ المُدَفَّأة
كنا نتدفّأ بذكريات أجدادنا
معتبرينهم أنصافَ آلهة
وإنهم فعلًا هكذا، لا أقل.
لكن الحقيرين جاؤوا بقنابلهم
يقولون لنا، بكل بساطة، إننا غير موجودين
بدأوا بشجر الزيتون، ثم بالبيارات فالبيوت
حتى إذا اندثرت جميعُها
رموا في المقبرة الجماعية كيفما اتفق
أولادًا وعُجّزًا وعرسانًا
أمواتًا أو على وشك الموت
أخفوا كلَّ شيء
وكلَّ ذلك
كي يقولوا لعالَم أشباه الأحياء
إننا غير موجودين
إننا لم نكن أصلًا موجودين
ولذا
من حقّهم أن... يُبيدونا.

(٧) مكتبة أُضرمت بها النار

سطورٌ تعدو في كلّ اتجاه.
صمتٌ. انزياحٌ. خطوطٌ عموديّة تنقلب. تلتفُّ وتدور.
مخطوطاتٌ تحترق. كلّ شعلة تبيد كلمة. ثمّ جملة.
أسرارٌ لم تُقرأ ولم تُنشر. وثباتٌ فكريّة.
اكتشافاتٌ لا قيمة لها مع أنها وُضعت على ورق.
لوغاريثمات. حوارات موثّقة بين أناس رحلوا منذ زمن.
غضبٌ متبادلٌ. وتحليقٌ ليليٌّ حالم.
اكتشافات مخيّلة داخل الخيال اللا متناهي.
مقاييس أجرامٍ سماويّة في حركتها ومواقعها
ضمن طبيعتها الزائلة.
نظريّات سياسيّة متعاقبة خفرت لمقارعة حكّام.
رغباتٌ جسديّة تحوّلت إلى عشقٍ إلهي.
زنًا وعفافٌ في الحروب.
دمٌ يبحث عن شرايين من فخّار.
النار تلتهم عقولًا من الماضي. إنه تفكيكٌ حضارة.
يعدو الحلاج من بين النار هائجًا ليُعلن: «أنا الله» من أيّ منبر يراه.
فتشبّ النار في أصابع قدميه وأظافره وشعره.
كلّ ذلك جُعِل إلى الأبد في طيّ المجهول باغتصاب
بغداد في يومٍ من أيام نيسان
كانت دجلة فيه حبلى بالشرّ المرتقب
فزعةً من اندماجها بمياه الخليج الخادعة.

(٨) موكب مأتميّ للفضائي الأول

كنتُ تبحث خلال أيدي شجرة القرد
عن ذاك الخطّ المؤدي إلى السماء
سماء مفككة كموجة
كانت تتحرّك خلف الشحب
وذهبتَ تسبح في ذاك الغدير البعيد
ذهبتَ لتعلّق هناك
بَروذًا كالجانب الغربي من أوراق النخيل
تحت بزوغ الظّهر
هناك كوّى في السماء
مألوفة للتائهين في صحارى «السيبيزا»
ثلّاجات متحرّكة مذاقها مثلُ
اللا- مادة حينما تُجنّ الفيزياءُ
غاغارين سكوت غهرمان تيتوف مكديفيت
كوماروف الكهنوتُ الجديد لرؤساء الملائكة
جالبًا رسائل من الفضاء الخارجي
حالًا شيفرة البروتونات ومتحركًا تحت
سيلٍ من الألكترونات المسافرة
سبعة غروبات لمساءٍ منفرد
والقمر غيرُ المقاطَع
ينمو في عيونهم بنظرة
أمّهاتٍ يلتفتنَ إلينا من الطرف
الآخر لموتنا
سبعة صباحات لرائد فضاء!

في البدء كانت سان كوينتين
ولمحتها في الفسق ككازينو مهول
كمبنى «فرانك لويد رايت»
لمحتها كحلمٍ يطفو مجيدًا
إلّا أنها كانت ترفض النور
كمرآة
حزنُها كلّه مكتوبٌ في ذلك الرفض.
النور لم يكن ينفذ
لقد كان يؤسَر بكلّ مجده
والسجن يحوّل وحسب، بالنسبة لمن
هم وحدهم في الخارج
والنزلاء يبقون في الظلام
وهذه الأخيلة كذلك تُصاد
تُسجن فوق الورق
أراها وهي تكافح نحو الحريّة
تكافح نحو المعنى
وهي تنهار كما انهار غاغارين
اليومَ
كان ضفدعًا يهبط
كان صليبًا يمرق صوب الأرض
كان زورقًا تحرّكهُ جيناتهُ
حينما المعلومات كلها جُنّت وتوحشت
في كلّ خليّة من خلاياه
وطار وكِلتا ذراعيه كلتا ساقيه مفتوحتان

كبوصلة
كطائرٍ مضروبٍ بالبرق
كالخفافيش التي اعتاد أن يرسمها ليوناردو
خفافيشُ أجنحتها أيضًا كانت معميّة
ورأى
من حيث لم يكن ظاهرًا
حتى واحد من ثلاثة عشر من قطر الأرض
رأى كسواحل من سمكٍ ميتٍ
في مياه استوائيّة
خطًا صامتًا من فضائيّين موتى
يتحرّك عبر نقاوة الفضاء
وسقط
عائدًا إلى شجيرات الأرض
السود وسط نارٍ مفاجِئة
كانت هي تأبينهُ
(بلغت الرحلة نهايتها
رحلة أخرى للتوّ
قد أشرقت)
انفجارات ضوءٍ
لمباثٍ تنفجر
تتشقّق
الجنس البشري برمّتهِ
مهاجِمٌ بكل هذه
الأنباء، الصور، فولتاج الجماع،

وجنازٌ ما لحاجز الصوت!
طائرًا في مركز اشتعالٍ عنيف
كأغنية
هبط بسرعة كونيّة
مفتقدًا الأمّ الأرض
وعائدًا إليها كما
بطلٌ ميّت من معركةٍ
بينما الشمس كانت تنتحب.
هناك أزهار حمز وحسبٌ على أرضنا
أزهار ولا سيقان
سيقان ولا أزهار
صفّاراتٌ نواقيسٌ طبولٌ ضربات أوتار
طبولٌ ومزيد من طبول وأقدامٌ
البشر كمزيدٍ من الطبول
طبولٌ آسيويّة طبولٌ إفريقيّة طبولٌ عربيّة
طبولٌ أميركيّة طبولٌ روسيّة
طبلٌ
بينما الشمس كانت تنتحب
عاد البطل الميت من المعركة
إلى أمّه التي افتقدها
بسرعة كونيّة
كأغنيةٍ في مركز اشتعالٍ عنيف
الفضائيّون بدورهم فانون
غاغارين الرجل الأول في الفضاء ولكن الثالث عشر

أيضًا

الشمس الإله رَغ وإيزيس المميتة

إيليا ويسوع وأنت

محفد يرفَ فوق أورشليم

آبيًا الدخول إلى الجنّة إلّا وهو عارٍ

ثم يُحوّل إلى كومةٍ من رماد

أنت أيها النبي إيليا محمولًا بخيولك

محترقًا بالقرب من الشمس

كلّكم أيها الفضائيّون محمولين بواسطة أحلامنا

تطفون أعلى من النوم

كلّكم أنتم يا رؤاد ذاك الفضاء

الذي يتأرجح بين الذرّة والحلم

سمعنا دقيقة الصمت الهائلة

ووقفتم جميعًا حينما أتى إليكم غاغارين

الطفل العظيم في الآلة العظيمة.

(٩) قصيدة إلى مایاكوفسكي

١

مایاكوفسكي أين أنت؟
أستطيع الذهاب إلى المحظة
لاصطحابك،
فنتحدّث عن الطقس
في طريق العودة.
وإن كنت قادمًا بالباص
يمكنني انتظارك في نهاية الخط.
أما إذا استطعت تدبير ما يكفي من المال
لتستقلّ الطائرة
أصحو باكرًا
وأوافيك إلى المطار.
لا تقل لي، عزيزي فلاديمير،
أنك أضعت عنواني،
وأنك لن تأتي
غدًا أو أنك لن تأتي أبدًا.
سوف أنتظرك مع ذلك
لأننا نشعر بالتعاسة
هنا وفي كل مكان، في أوروبا
كما في كاليفورنيا.
كلنا يعلم أن ثورتكم
كانت دموية

لكن العالم يذرف الآن الدم
وما من تغيير وما من أمل
يلوح في الأفق.
أنت تحت التراب، يا مایاكوفسكي
أعني إذا كانت عظامك لا تزال متماسكة
رغم السنين،
فدعني أبلغك أن
الشعراء يغادرون غرفهم
بالمئات،
بحثًا عنك، في كلّ قطار وكل طائرة وحافلة،
وليلًا، يبحثون عنك في المرافىء.

٢

تحت ضوء باهت مترجرج
أتابع مباراة لكرة القدم
محدّقةً في نقطة في الفضاء
بين الراديو ومایاكوفسكي.
لم يكسب فريقي مباراة واحدة
منذ أن انهارت الثورة
تحت وطأة توقعاتنا
الكارثية.
لذا نتظاهر بلعب الشطرنج
مع الروس
أو نذهب للتزلّج في المحيط المتجمّد

مثل نروجيين في عطلة.
إنما هي المشكلات
تزورنا، فتلقانا نقرأ كتبك
يا مایاكوفسكي، وقد اصفرّت صفحاتها
من تراكم الغبار.
نقصّ أعمارنا مئة عام
ونحن ننتظر معك الإشارة
التي سوف تغيّر العالم.

٣

لا أزال أسأل أين يختبىء
الشاعر، فلا تجيبني إلّا البسمات
ونظرات الدهشة.
أتوغل في أزقة
المدينة على أمل رؤيته واقفًا
قرب نافذة.
أقرع على باب «للي بريك»
فيصيح بي جيرانها انها
غادرت إلى باريس.
أقرأ الصحف وإعلانات الوفيات
فلا أعثر على اسمه
مع أن موسكو ليست مظلمة
هذه الليلة
بسبب الثلج.

وعند عودتي إلى الفندق،
هاتف يبلغني: لقد انتحر
مایاکوفسكي...
ما كنت أدري.

٤

في بيريزينيا طفولتي،
كان الجنود يموتون من الصقيع
ونابوليون يخسر الحرب.
وأنا كنت أبكي على الجياد لأنها
تبدو أكثر حجفا من والديّ
وهي منقلبة على ظهورها.
هذه الأيام، أرتاد
مقاهي الشاطىء وأمارس الحنين إلى
علامات المغامرة.
مع ذلك، فإن شيئا ما يضغط
على صدري. الزبائن سعداء
في هذه اللحظة الخاصة،
يحتفلون بقدوم الموسم.
وأنا مضطربة

٥

إن مستقبل هذه اللحظة سوف يكون
أبأس من أن نكترث له. فالأخبار تورثنا
الاحباط والخوف.

الاستنارة كامنة في شجر السنديان
لا في قلبي، أنا الباحثة عن شاعر أحادثه
الليلَ بطوله.
أذكر أن القطارات في تركيا
كانت تنفث ثاني أوكسيد الكربون
فيما السلطة تنهار، وأن النسوة كنّ يحتسين الشاي
عند حافة شهواتهن.

٦

لي أصدقاء يكتبون أشعارًا صوفية
أيام النشوة، أقدامهم العارية
تلاعب مياه المحيط. وسياراتهم
تلتمع أمام الأبواب، تحرك أذيالها
بنفاد صبر.
أشعارهم أشعار عذبة تبوح بأسرار
العالم مثلما الشباب يبوحون
بالحب الأول.
ولي أصدقاء آخرون – يعيشون طبقًا
بعيدًا عن خليج كاليفورنيا – ينقشون
أشعارهم على جلود أدمغتهم.
يسكنون منازل مكتظة إلى درجة
أنهم يتناوبون على النوم لساعتين
كلّ نوبة.
ولمّا كان الحصارُ يمنعهم من الحصول
على حبرٍ وورق، يحلمون بأن يذبحوا
شرايينهم، ذات صباح، ليكتبوا
رسالةً إلى أمهم.

٧

يا مایاكوفسكي، توأما
الدم والموت يقودانك إلى
اقبيتهما المظلمة المغلقة الخاوية،

لكنّ رؤياك السريّة تسافر
من بلدٍ إلى بلدٍ لتستقرّ في عقول مختلفة
وبنايات مختلفة.

٨

لأننا نجمع طعام الروح
في كتب الإعراب تنشلّ حركتنا
فنفقد النطق والأغنية
ونحرَم التماسك.
هل كُتب علينا أن نلازم أمكنتنا،
متمسكين بأفكار من الأبدية تتلظى كما
الشمس ذاتها، نظير فرن قابل لأن يحيل كل
شيء
شعاعات مضيئة؟

٩

هل تسمعني حيث أنت؟
إنهم يبحثون عنك
بالمشاعل الكهربائية،
في أودية خفية،
وكهوف.
هل وصل صوتنا إليك؟
لعلّك سمعت.
وربما أنك الآن تتململ،
تفرك عينيك،

وتتمطى،
بل ربما أنك بدأت تسير في الأزقة
التي سوف تقودك إلى منزلي
ماليفيتش وتاتلين
- لقد فارقنا هذا وذاك -
ومات العديد غيرهما مذذاك،
بعضهم شعراء مثلك،
والبعض الآخر من الذين كنت تكرههم،
ولكن ليست هذه هي المسألة.
فلا يزال العالم شاسعًا،
ولا يزال البحر الأسود في مكانه، هناك
حيث روسيا تلتقي الشرق.

١٠

هل أنزلك أحذهم إلى الشاطىء، في تلك
الليلة المحيطية، أم أن غيومًا ترتدي السراويل
هبطت بك على الرصيف
فيما الجيش يحتفل
بعيد الاول من أيار؟
أنا أريد استعراضًا للشعراء القتلى،
أريد لهم دقيقة صمت وباقات زهر...
هناك، أرى آخماتوفا تنتحب بصمت
بين جثة ابنها الهامدة
وجثتك.

١١

قبل أن نولد أنا وأنت بزمنٍ طويل
كانت امرأةٌ ذات إزار أزرق
تسكب الحليب في قصعة رسام.
ثم ظهرتْ،
طويل القامة عاصيًا لا مباليًا،
على مسرح مطبخها
المضاء.
كانت السنوات سنوات هياج
والطلاب يقرأون أشعارك في
أسرّتهم وفي مواسم
حياتهم المرتفعة
وكان فيرمير يعمل على رسم
صورتك الشخصية.

١٢

مایاکوفسكي، من أين آتي بالريح
التي ستحمل أفكاري إليك؟
كلّهم رحلوا: الإمام علي وتشي غيفارا
وغسان كنفاني وأنت...
لم يبقَ إلّا القساة.
هذا الربيع، اصطفّت الأجرام
مثل سجناء ينتظرون
أن يحصدهم الرصاص... في

رائعة سماء شاسعة.
الكلمات العالقة في حنجرتي
هي حصى مشقة،
وهي الرصاصة التي قتلتك.
إننا في سؤرة الغضب الساطع، وأنت تعلم
معنى ذلك.

١٣

عزيزي م،
يمضون، بقمصانهم التي يرتدونها على قفاها،
وأنظمة الحماية من الطعام
والصراخ
- إنهم أثرياء جدد طبعًا -
يمضون لينهبوا الأدغال،
ويروّضوا الأنهار
وليتناظروا فوق يخوت الملذات.
بعضنا يعتقد أنك،
في لاعالمك،
لستَ أسوأ حالًا
من أولئك المهزولي الأجسام
الذين تكتظ بهم مدن الصفيح في
القارة الأميركية.

١٤

يا أعزّ الناس،

الألوان تزوبع
في النخاع
عندما نحدّق
في الفراغ
الذي يتركه رحيل
الزمن
وذرّات الطاقة
تنسكب في العينين،
فيكفّ المرء عن
التفكير ما إذا كان الأفضل
أن يعيش أو أن
يموت.

(١٠) موقف الضوء

١

ذات نهار
كهذا النهار
مشوشًا بالأبدية
ينقطع حبل أفكاري
يتلاشى ببطء
في ضباب الرأس
من قال إن الجنون
يعمي الملائكة
يقص أجنحتها
ليخترق خيط الرغبة
جدارًا أملس؟
ولماذا نزرع الرعب
في قلب المريخ المحروم
من الماء؟
لماذا نقصده
ما دمنا عاجزين عن اجتياز الطريق
المفضي إلى
عالم الموتى...

٢

تقطير الواقع

ترشيحه
تقليم الأشجار
دوار الأفكار
في حريق لحمنا
الجريح
والممزّق
في يوم كهذا
يفقد الجسد كينونته
بينما الجنود
يغتصبون ضحاياهم
ويلعنون آلهة الخصب
ذات يوم
كهذا اليوم
فقد الوقت قيمته
في سوق المال
كما في هذه الغرفة
وفي الغابة المتحجّرة
والخشبة المتسلّلة
والريح
وكل هذا الجحيم
من الفزع

٣

ذات نهار كهذا النهار

نقرا الاغتيالات
سيولَ الدم المنهمر
من الأفواه
من الرؤوس
في الهاتف نسمع صراخًا
ولا نرى الدموع
لا نرى العيون
نسمع
ما ازدردناه من تلوّث
ما تعلّمناه في أوقات الفراغ
بين قذيفتين
نسمع
نحيب أصابعنا
المعضوضة
رغائبنا المنسيّة
وذلك العار المتسرّب إلى أقدامنا
ها هو اليأس يُطلّ
يملأ غرفنا
ها هو المحيط
يُمعن في الإغتراب
وها هم رجال الشرطة
يصغون دون مبالاة
إلى صراخنا
عبر كثافة الغابة

لا مخرج للانتظار
للرعب
لا مخرج للحبّ الآثم
أو للأخبار
التي حلّت محلّ المطر

٤

لن أشتري الخبز
لن أفتح نافذة للضوء
لن أتابع الألعاب
عبر الأقمار الصناعيّة
لن أمسح وجهي
بمنشفة ناعمة
لكنّي سأسألكم:
هل سددتم ديونكم الصغيرة؟
هل أحصيتم الجثث؟
هل قلتم للطبيب إنكم كنتم
تفضّلون لو كان ساحرًا؟
هل أمرتم شراييّنكم بأن
تكفّ عن اللعب بدماغكم؟
هل قِستم طول الشاطىء
المليء باللاجئين الأشرار؟
هل أخرجتم البدقيّة
من الخزانة

أو من تحت الفراش؟
هل أخرستم أصواتهم،
إبتساماتهم،
خطاهم؟
رائحتهم الكريهة؟
هل نعمتم
على الأقل
بليلةٍ مريحة؟

٥

ليلة القيامة
السرعة المفرطة
الكحول
وممارسة الحبّ بجنون
لا داعي لمكبّرات الصوت
حين يكون دماغك
مصدرَ الضجيج
لا داعي للموسيقى
حين يتعذّر على أصدقائك
الإصغاء في أكفانهم
يومٌ عادي
ورقة تتطاير
مثل سواها
تغادر شجرتها

أو التقويم المعلّق على الجدار
إنها حقًا ليلة عاديّة
عاديّة كالمعتاد
عارية مثلما دوّنته
الموظّفات
بخطّ يدك أنت
بخطّنا
أو بخطّ الساقية
قبل أن تمحوه

٦

حين يمنعونك من التنفّس
لا تستسلم
بل تمتّع بمذاق البوظة،
اللحم،
السمك،
النباتات...
تمتّع بطعامك
كُلْ وجبتك
كُلْ جارَك
أو الجبل
فالعالم لن ينتهي
أثناء حياتك
ولا أثناء حياته

بل سينتهي مثلك
بعد انتهائه
سينتهي مثل أيّ رابحٍ
أو خاسر
لا تلتفت كشبح
فلم يعد في العالم مكان
للأرواح
للأجداد
أو الأنبياء
الدرب طويلة
والموج يتراجع
موذعًا المراكب
تعلّق المرأة غسيلها
على حبل السطح
فيحسبه المجنون
رايةَ الاستسلام
ويُسرع في إلقاء
التحيّة العسكريّة
مصفّرًا

٧

في هذا اليوم
هذا اليوم جذا
تقتلع العاصفة

كلّ ما يصادفها
إذهب معها
أدخلها
وكُنْ الريح
خلف الانفجار بصماته
على الروح
في الشرايين
في الأقدام
وفي الرحم
إفرك عينيك
بالرمل
لتستقبل زيارة
اليقين اللامرئي
المودع في بلدٍ
مفقود
في وصيّة
الأب
كان الحديد

٨

في يوم كهذا
ذكريات مشتتة
من حصى وحجارة
تقاوم الفناء

هكذا تتلقى البلديّة
إشارات وتحذيرات
وتهديدات
وأعمال سحر
ولعنات
تمضي كلّها
في اتجاه العدم
وعلى واحدٍ
من شطآن الجحيم
ينتهي نهار
لم يردهُ أحد

٩

ثمة جريمة
تفوح رائحتها
في الأفق
أطفالٌ ليسوا
من هذه الأرض
على ما يبدو
ينتظرون أن يتحوّلوا
إلى رماد
عسيرًا علينا
كان هذا النهار
الثقيل المزاج

الغضب يتصاعد
يبلغ ذروته
وراء نعش
غضبٌ لا يخبأ
في قبضة اليد
غضبٌ يتغذى من خزانات
شئى
تواكب الانحدار الطبيعي
للعقل
لم يحن الوقت بعد
لترسم الشمس
دوائر الغيوم
ففي صدرها
جرح يمور
وثأر

١٠

في يوم كهذا
أولى بنا أن نسير
بلصق الجدران
وأن نعلن ذلك
جدول الأعمال:
تدميرٌ وإبعاد وظلام.
لأنها تؤخذ غلابًا،

سيستحيل علينا النوم
في سرير الشيخ الاكبر
فنحن بلا بندقية

١١

أمطرت ثم توقّف المطر
فكفّ الندى
عن زيارة الورود
رفع أرنبٌ أذنيه
نحو هذه الحدود
حيث تنزلق الجبال
وكتل الجليد
بينما النوافذ
مفتوحة لتدخل
العصافير
وتحك مناقيرها
مرثلةً صلاةَ
لريشها المقتلَع
كلّ يوم
يتخفّر العجين
بدمِ خبزٍ يوميّ
جديد

١٢

عليّ أن أمنح صوتًا
لأسرى الجدران
أن أمنحهم مجزد كلمات
أليست الكلمة

أول ذرات اللغة؟
أليست الكلمة
قنبلة منزوعي السلاح؟
كل هذا
انتهى خرابًا
هناك...
لوهلةٍ،
لوهلات طويلة
في السماء
كان القمر المكتمل بدرًا
كان
خيانة
لكن عليّ أن أقول
لمن ينتظرون انتصارهم
موقف المواقف
عليّ أن أقول لهم
لأنهم ينتظرون
لأنهم اعتادوا انتظار
الموقف الأخير
إنني سعيدة...
عليّ أن أطمئنهم
لأنهم
يموتون.

الاضطراب من سمات العالم
والألم من طبيعة هندسته
حتى العظم
لكن هذا اليوم
مفعم بالظلام
حتى أنه لا يبدو
مظلمًا.
الظلمة تسرّبت داخل
تلافيف الدماغ
وهذا ليس مكانًا
بوسعنا أن نرى من خلاله
الضوء.

هُناكَ في ضياء وظلمة النّفس والآخر

ترجمة سركون بولص

في ذكرى خليل حاوي

هُناك

أين نحن؟ أين؟ هناك ثمة «أين»، لأننا بكلّ عناد، موجودون، وكان لنا وجود، فمن نحن إن لم نكن أنا وأنت؟

أين نحن؟ خارج التّاريخ، خارج قصّته أو قصّتها، وعوذًا إليها، خارجًا في الفضاء، وعوذًا إلى الأرض، خارج الرّحم وبعدها إلى التّراب، من نحن؟

أين الأنين، أين الرّعب، الحبّ، الألم؟ أين الكراهية؟ أين حياتك، وحياتي؟

هناك ثمة أين، مرتبطةٌ بخطوط التّلفون، مكانٌ للانتظار، وآخر للنّوم، قبلة وزهرة، وأين نحن عندما تكون، وأين أنت عندما أنتظر منك أن تكون، أن تكون البشر الذين أراهم.

من نحن، نسلٌ، قبيلةٌ، قطيعٌ، ظاهرةٌ عابرة، أم مسافرٌ ما زال يسافر من أجل أن يكتشف من نحن، ومن سوف نكون؟

هل يا ترى نسافر على حبلٍ ما، هل السّرطان يأكل جيراننا، أين تكون الشّمس عندما يهبط الليل، وأين الفردوس على طرقات المحيط الإسفلتيّة؟

من نحنُ، امرأةٌ أم رجل، وهل ذلك موسمي، هل هو أبديّ، وهل صحيح أنّ هناك رجالًا ونساء؟ لا بدّ أنّ هذا صحيح، لأنك ولأنني.

هل هناك حقدٌ في قلبك، وهل يعني ذلك أنني لستُ هنا، وأين أنت عندما يكون الوقت متأخّرًا؟

أن نمضي، أن نكون ماضين، قُدمًا، لأنّ العالم دائريّ، أنْ نعود

أدراجنا، إلى أين، إلى ماذا، أن نكون كرة تنظ، أين، على ماذا، أن تهزمنا الجاذبية.

من أنت عندما لا تكونني، ومن أنا؟ هل ينبغي أن نكون بشرًا أم أسماكًا، أسماك قرش، أذكياء بما يكفي. لنمحو أنفسنا من على وجه الأرض؟

وما هي الأرض؟ بعض الطين، بعض الصمغ، مذنّب ما، هل يمكنها أن تنتمي إلى نفسها؟

هل عليك أن تحبّني لأنني حرّة، وهل عليّ أن أتبع مصيرك بدل مصيري، إلى خارج التاريخ، بعيدًا عن الزمان وأقماره الصناعية التي أسماؤها الخوف والموت؟ هل عليّ أن أكون؟

أين نحن؟ في الوسط، عند البداية، النهاية؟ من نحن، أهذا أنت زائدًا إيّاي، أم شيء آخر قابلٌ للامتداد، قابلٌ للانفجار، ملخ أفكارنا وفلفلها، ذلك الشيء الذي قد يدوم ما وراء ألوهياتنا كلّها؟

هل ذاهبةٌ أنا دائمًا بواسطة قارب، ومن أين؟ هل أنا أبكي، ولماذا؟ هل يسدّ الطرقات ملائكةٌ أم جنود؟

إنّني أطلب منك أن تركض سابقًا نفسك وأن تخبرني لماذا عظامي باردةٌ هكذا، أم هل أنني أريدك أن تترك أشجاري وشأنها وأن تبحث عن الماء حيث تطفح الأنهار؟

ذاهبةٌ، في قطار، أتوقّف في لا مكان، لأنّه لا مكان، والبشر يتدفّقون فيه، كأكياس مبقورة من الحنطة، والطيور تطير عاجزةً فوق رؤوسهم.

من نحن، أطفال التاريخ أولاء، أطفال من، أيّة فترة، أيّ جانب من التاريخ، الخروب أم القصائد، الملكات أم الغرباء، على أيّ جانب من تاريخ من سوف نكون؟ هل سوف نكون؟

أين نحن؟ في صحراء، فوق ثلّاجةٍ قطبيّة، داخل رحم أمّ أو في عينيّ امرأة، في حنين رجلٍ، أم هل نحن في داخل بعضنا البعض، داخل مستقبل كلٍّ منّا، مثلما كنّا في الماضي؟ هل نحن

أمواتٌ أم أحياء؟

لم يسبق لي أن كنت هنا أبدًا، حيث يترنّح قاربُ لذّةٍ في الحرارة، وأنت لم تكن أبدًا في حديقة عفتي، أين كنت إذًا؟ خرجنا نبحث عنك وإذا أنت نائمٌ بالقرب من نافورة. أين كان ضوء القمر؟ أين القلقُ واللّهفة؟

رميتْ ذكرياتي من النّافذة فعادت إليّ، غريبة، شحّاذين وساحرات، تاركةً إيّاي واقفة، وحدي كالسّيف. هل هذا هو السّبب في أنّ الشّمس تبدو كالحةً هكذا عندما تنظر إلينا، ولماذا هناك كلّ هذا الحبّ تحت وطء الحرارة والحقيقة؟

هناك

آه نعم! رسا كولومبس في مكانٍ ما، أين، جالبًا معه النّتانة، الأمراض والجراح القاتلة، ألواحًا لكي يُصلب عليها الهنود، متى كان ذلك وأين؟ ها أنت إذًا أخي التّوأم العدوّ، ظلّي التّوأم، وهل ذهبنا إلى الأميركيّتين، من بعث بنا إلى هناك؟

إنزل عميقًا في حنجرة العالم، ما من طريقٍ للخروج من هذا الكون، لكنّه آنذاك هل هنالك حقًّا كون، ولماذا، ومن أين، وهل وجوده ضروريّ لكي يكون أيّ شيء، وإذا لم يكن هناك مكانٌ ما، ماذا إذًا، بلا إيمان، ربّما هناك حبٌّ، في مكانٍ ما؟

هل ننادي الريح على امتداد المخيّلة الشّاسع، هل تغلق بابي أم هل تأتي بالمفتاح في اللّيل، بالطّعام، بالابتسامة، بالحقد والحُبّ؟ هل أنت هناك في الظّلام؟

هل مطلوبٌ من الجبل ألّا يتحرّك وهل على السّماء أن تكون مفتوحة على وسعها عندما نكون موقنين من أنّنا، من أنّنا ماذا، هل ما زلنا أحياءً عندما نكون قد متنا وهل نحن هنا لكي نبقى؟ هل تدري أنّني هنا، مثل نهر، مثل سكّين، أو أيّ شيءٍ يمكن لك أن تشتريه وتأخذه إلى البيت؟

إلى أين سنذهب عندما تنطفئ الأنوار ويبدو أنّنا متشابهون؟ نطالب بعفوٍ من الجفاف لكنّنا نخاف الماء إلى حدّ أن يتوقّف

المطر عندما يأتي ونعود إلى الشمس.

حركات الجسد، الحرارة، النار، كانت بديعة، وإلى أين مضت الظهيرات، لماذا كلّ هذه الحروب، لماذا نبش غيفارا عظام كولومبس من الأرض؟

وتكلّمني عن السلام، بينما نشرب القهوة، كما في الأيام السالفة، أعني بين الغارات العسكرية، ولا أحد يدري كيف كُتبت الموسيقى، من كتبها، على طاولة من، وهل كان ذلك بالحبر أم الدم؟

وكما ترى قد يحدث أن نمضي كما مضت الديناصورات، لكننا ما زلنا هنا، أليس كذلك، والله سبقنا في اختفائه الإلهي، ألم ننقص نقصانًا، معانين من شهيّتنا الزائدة، متكاثرين من أجل ألّا نكون هنا، ذات يوم، يومَ كالأيام الأولى، عندما تكون الأحجار، تكون هناك، على التربة، الأحجار ليست هي النهاية، نهاية ماذا، نهاية من، نهايتك أنت أو نهايتي، وربما أنت فقط ثمّ فقط أنا، عندما لا يعود يهمّ الأمر، فالأحجار هي البداية.

هناك

في أحشاء الأرض نجتمع ونخطّط عمليّاتٍ مميتة، هنا بالضّبط، بمعزلٍ عن قرارات البحر، وتظهر أنت بيننا- مایاکوفسکي في مطبخ فيرمير- تغلبك الحيرة: هل يمكن لأحد ما أن يخطّط لموتك، هل يمكن لهم أن يقتلوا جارك القديم (هل سيمنعونه من مشاهدة نشرة الأخبار، في تلك الليلة القاتلة، هل تنظر روحه إلى جسده الغارق في بركةٍ من دمه؟)، أجل، سيفعلون، وأنت ستفعل الشيء نفسه، فالقتل يأتي أوّلًا، وبعد ذلك، الأسباب.

عبرنا غابات، هل تتذكّر، كان الحلم ينمو أسرع من أشجار جوز الهند، كنّا نحرّر العالم من خيباته. دفنّا فلّاحين بوليفيين إلى جوار تشي، معيدين تمثيل قصّة المسيح بعيدًا حتّى منابع

الأمازون. ذهبنا إلى هناك. تلك الرحلة مسطورةٌ في ذاكرةٍ حقيقيّة.

هو الذي يحسب الساعات يفقد حسّ اللازمنيّة ونحن نحسب أمواتنا. الوقت دائمًا متأخّر، متأخّرٌ بالنسبة إلى ماذا، إلى المحاورة التي نريد أن نديرها ذات أمسيةٍ متأخّرة في «مقهى بوغاتي»، في مكانٍ ما على «الساحل الغربي»؛[3] بعيدًا عن خطّ الجبهة، لكنّ الحرب تجري من حولنا، ظاهرةً بدرجاتٍ مختلفةٍ من الحدّة. نموت دائمًا على بقعةٍ محدّدة المعالم. الجسد يذهب.

فيضانات، لها ديمومة الشّمس. إنّ سلامًا معيّنًا أودّ لو شاركتني إيّاه يغزو انتباهي في صباحات الخليج؛[4] الباكرة. النّور يتبخّر من الأرض ويحمل الروح إلى حسّ البدايات. تبدو الأشياء ممكنة، ولها علاقةٌ ما باندفاعة العيش.

لك أن تدّعي الحظوة بالنّسبة إلى تجربةٍ كهذه. كيف لنا أنْ نقيّم صفاء ذهنك، براءته؟ الأمر واضحٌ هناك، في ذاك المكان، كما أراه من نافذتي، ودماغي يفوق في حدّته قمر الزّاديو الصّناعي. لا حاجة لي بالسّفر إذا ما أردت أن أزور شوارع بلدتي التي اختفت، وأنت تفعل الشّيء نفسه، أنا متأكّدة، حتّى لو أنّ مسقط رأسك يقف ممجّدًا تحت رايته، لكنّك فقدت إلى الأبد ذلك الضّياء المعيّن الذي كان يصحبك إلى المدرسة عندما كان عمرك يتراوح بين الرّابعة والسّادسة.

إنّ شارعًا ما منطقةٌ مستعادةٌ من الماضي الذي نُفرق فيه أنفسنا بحثًا عن التّحوّل. الحقّ، إنّنا منشغلون بتدمير الأشياء التي نحبّها لأن نفاد الصبر جزءٌ من عاطفة الحبّ.

ميّتٌ، فميتٌ، هو الموت. الزّمانُ محسوبٌ. لا تدعونا نقيس خفّة الحبّ العديم الوزن. هل هناك نورٌ قُدّامنا، أمّا من سماءٍ ترفع نفسها في احتدادها الفتيّ؟

هناك

وهناك جلست ظلالنا أحدها يواجه الآخر، وهل كنت وراء الغلالة، وراء الجدار؟ كانت عيناك تستوعبان زرقة الحزن بينما كنتُ أنظر إلى النيل، ذلك النهرالذي يبدأ عند الأفق، ويهبط عبر شرفاتٍ كبيرة، هلِعًا، مخيفًا، وثمّة زهرةٌ وصلت إليّ، نهشت ما أناهُ، تحوّلت إلى ربّة فراشة، ومضينا قُدمًا، في انخطافة.

ألا يُمكن لنا أنْ نفهم بعضنا البعض ونوقف القتل، بدون الرّقصة، الرّكض والسّير؟

هذا الضباح؟ الوقت باكرٌ للذّهاب إلى الشاطئ، أكثر بكورة من أن نبدأ بالقتال، لذا نتلكّأ على حزمة ضوء ونخترق النّوافذ، غير ملحوظين، بينما ينتظر رجال البوليس مُسلّحين بالهراوات، والقفافيز، والغازات، وأوامر بأن يطلقوا الرّصاص أو لا يطلقوه ما وراء دماغ الواحد، لكن هل يمكن للبوليس أن يحتفظوا بهدوئهم أكثر من زهرةٍ يمكن لها أن تتوقّف عن الصّعود من الماء وتتحوّل إلى باراشوت، إلى آلةٍ سماويّةٍ من الحرب العالميّة الثانية انطلقت منذ زمن إلى الفضاء الخارجيّ؟ نحن ضعفاء، إذ نجلس، ونواجه بعضنا، وقروننا مشتبكةٌ في معركة.

وهكذا جلستُ على الأرض، أيا شهرزاد، وما من ملكٍ يُصغي، ولا شحّاذ، وهل أنت هناك، خلف السّتائر، ما وراء جبالنا؟

من هو عدوّي، وهل ينبغي أن يكون لي واحد، أهو صديقي الأقدم، هل كان شابًا عندما دخل المذبحة، هل كان له، عن طريق الخطأ، أن يُردي ابنته قتيلة؟

الشّمس تعلوني، تلك الشّمس الأصليّة التي تتكلّم عنها الملائكة، كرةٌ من النار، انظروا! ثمّة ترابٌ هناك، عواصف، هناك خبَبٌ، أيّ حبّ، من أجل ماذا، ثمّة شيءٌ هناك يستمرّ في النّموّ...

الطّقس بارد، هناك، تحت خيامٍ بدائيّة مصنوعةٍ من جلدِ ناعم كجلد قلبي. ما أجملك، أيّها الشاب يا صاحبي، ليس بوسع عينيّ أن تراك، لفرط شحوبك يضيء حضورك بيتي.

انظر إلينا، رغم أنّنا لا ندري إلى من نتكلّم، ليس عليك أن

تعرفني، عندما تهبّ الريح تأتي إلينا بجمالك الأثيري، قبل أن يفوت الأوان، وقبل أن نمضي على دروبنا المتشابهة والفختلفة إلى حيث يتسابق عقلي أسرع من أفكاري.

على أيّة حال، من أنت؟ أنت المولود تحت شارة الأنثى، الفحارب، المرأة أو الرّجل، وهل يهمّ ذلك عندما تتصاعد الرّغبة قبل أن ندري، بائحةً بأشياء مجهولة؟

تقف أمامي كالموت، أو الكلمة الأخيرة، مصنوعًا من الزّمان، من السّرعة.. لقد صدرتْ لحفًا حيًا، نفخت الحياة في اللعنات وجعلتها تذوب في عظامنا. من الذي يمكن لي أن أسمّيه صديقًا؟

دائمًا، على الأفق المضفور، هناك الخوف، وثمة قلقلةٌ تجري مثل إلهٍ من زمنٍ سحيق، أو موجة التّفكير الأولى، وأنا في عجلةٍ من أمري، ألست أنت كذلك أيضًا، أنت من لا أستطيع أن أسمّيه امرأةً أو رجلًا؟

هل أنت ماءٌ شفّاف كما اعتادت عيناي أن تكونا، هل أملك، في هذا، الكلمة الأخيرة؟ هل أنت وحش رؤيا القيامة، تحتاج إلى حقلٍ من الحنطة من أجل زفافك؟

إنّهم يطلقون النار على خطّ الجبهة، يفزعون الأطفال من النوم، كما سبق وأن حدث، هناك، عندما لا ينظر أحد.

تعيش في ظلام الروح، في مكانٍ ما من جنوب إسبانيا، حيث تزوّجنا، وطلّقنا، حيث حصلت على إجازةٍ مرضيّة، وكانت الكنيسة ترسل أنظارها من فوق أكتافنا، عندما لم تكن تصلبنا أو تحرق كُتبنا.

لماذا تزعج نفسك بما مضى من الأعوام الآن إذ نذهب إلى القمر بواسطة الصّواريخ، إلى ما وراء عُطارد وإن لم يكن ما وراء مصائبنا، لمَ الأسى، لمَ المالح والجوع؟

النّظام يتخلخل، إنّه انفجارٌ أشلاؤه أعضاءٌ بشريّة، ومن يأبه؟

إنّك تواجهني، أليس كذلك، أو إنّك قد لا تكون هناك وقد

أذهب إلى السينما، حيث يذهب نصفنا، بينما يذهب النصف الآخر إلى الجحيم. لكن حذارِ، الأدوار قابلةٌ للتبادل، وأنت لا تني تبعث إليّ بالرّسائل بواسطة طيور البطريق.

في هذه الأمسية، هذه اللحظة المليئة بالنذير، أيّة أجوبة لديك، أيّ صدام للإرادات نعزّز عندما نجيب على الرّصاصة بالرّصاصة، على ألف جثّةٍ بألفٍ مثلها؟ ومن سيطعم الذّئاب؟

هُناكَ

في الهنا والآن. نعرف الصّور والكلمات لكن أين المفتاح والحلقة؟ إمبراطوريّةٌ تنهار، أيّها؟ الانهيار ليس ثورة، روسيا غير مفتداة، أيّة روسيا وإلى أيّ مدًى من الوقت؟ الحبّ والعدالة هما المسيح المُنتظَر، أليس كذلك؟

٦٠،٠٠٠ من الأطفال مفقودون في الولايات المُتّحدة وحدها، مَن يفتقدهم، الحكومة، الشّعب، أنت وأنا، مُتّحدين في تلك الحروب الخاصّة التي تُخاض ضمن حدودنا، أيّة خدود، يمكنك أن تسأل، حدود القلب، هذا الشّيء المعيّن الذي له حمرة الدّم.

ها أنت ترتّب تقويمك عائمًا ما وراء الضّباب لكنّ الألم لا يحتاج إلى معاهدة، السّجناء السّياسيّون لا يسمعون شيئًا عن الدّبلوماسيّة، فهم خلف القضبان بسبب ما فكّروا وما جازفوا به. اسمع، هناك في أزهار البرتقال والموز، في شجرة الآس التي لجاري كانت الطّيور تغرّد عن الحريّة للفتاة الصّغيرة التي كُنتُها، هناك في ذلك المكان، وأين هي الجُسور؟

تعرف أنت ذلك كما أعرف، أنّك عشت حيث عشتُ أنا وغادرنا في نفس اليوم بمناخه العاصف. أين كنت عندما نشبت الحرب، الحرب الواحدة والخروب العديدة، محيلةً شعوبًا كاملةً إلى صفوفٍ طويلةٍ من الخراف؟

هل أشرح ما معنى أن نُهان، ألم أرافقك إلى ملكوت الأموات، ألم نحاور الأشباح، بعضًا ممّن نعرفهم والبعض الآخر ممّن لا

نعرف...

الطين عنصرٌ جوهريٌ، عزيزٌ على الخليقة، فطريٌ بالنسبة إلى أرضٍ ذات أنهار، من المنيّ والملح، ومنه أيضًا يشيّدون البيوت، هنالك، وهو مغطًى بالنابالم والعلَم الأمريكيّ.

تتحدّثُ عن الشّعر، كما يفعلون في بلاد العرب أحيانًا مع جواسيس سريّين. إنْ لم تكن الكلمات في الشّوارع فهي بائدة، قلت لي هذا وأصغيتُ لك، بينما كانت البراءة مُتاحةً لنا.

إنّني أقول لك، الغضب يموت بينما تبقى النّيران، وقبل أن تُنتج شجرةُ عائلتي الزّيتون الذي ستأكله، هناك، في الحرارة الغضب والتّراب، سوف تستحيل الحجارة إلى أوراق.

هُناك

أمطرتْ دمًا. تهدّمت مدنٌ مقدّسة. لا أحد راقب النّيران. مخيّلتنا بقيت سالمةً بعد انقضاض الغارات؛ لماذا سامحَ نفسها كلّ هذا الرّعب، هو ما لا نفهمه.

الرّعب هنا، لا يلين أبدًا، الريح تعصف، الشّمس تتبع مدارها، أين يُمكن لها أن تكون إنْ لم تكن بين ظهرانينا؟

أين خبّئي لك، متخفيًا، حارسًا على نومك، يُمشّط جسدك بالأسئلة، يستعدّ للرّفاف؟ هل يبعثُ يا ترى، بالنّذر المُعلنة عن كارثة؟ هل الجنس البشريّ يصرّ على صيرورته؟

هناك

وهُنا، يمكنهم أن يزرعوا عيني على رأسك أو أن يخيطوا يدك على ذراعي، بينما نبعدُ عن بعضنا بمقدار سنواتٍ ضوئيّة لأنّ الشّرّ، في مكانٍ ما، فستنزلُ عليك، وأنت أردت لنا أنْ نموت، أنت الكائن المُنعزل الذي يُصارع مثل حوت، وأنا، أي، زحل وعطارد في حربٍ فوق المحيط.

في تألّقٍ رماديّ، على أمداء الدّماغ الملوّنة، الساعة غير أكيدة،

ترتعش هناك، في ذلك المكان، في الداخل هذه المرّة، أم هل أنها خارج غور كينونة الواحد، طالما أننا الآخر دائمًا؟

الأيّام ترتدي لباسها العسكري، بروميثيوس سرق النّار، من أجل من، من أجل الحرب؟ في حروب من نحارب؟ إنني أشهق من أجل الهواء، لا من أجل الغاز، ليت هذه الغيوم المهلكة تعبر وتختفي، ليت الأفق ينفجر وينفتح!

إنّه الظّلام، ما بعد الظّلام، توصلنا ببعضنا ثقة ذكرى عتيقة أقرب ما تكون إلى تجربة الولادة. فردوس من سوف يكون الفردوس؟

في أنفاق القلب الجوفيّة يُمكن للشهيّة أن تنقلب إلى سُمّ، الغضب المزرق قد يعني العمى بالنّسبة إلى الأطفال، هناك، في ملعب الموت، يمكنك أن تجد يدي قبل أن تحترق وتختفي، بينما الزّمان ما زال يقف ساكنًا.

هناك

الزّمانُ جديدٌ والصّفحةُ بيضاء، يأخذ النور مسارهُ نحو حذقٍ أشدّ، النّهار يؤدّي إلى صحيفة الصّباح.

اذهب فاجلس هناك. كانت أمّك تقول لك عندما كانت ما تزال شابّة وكنت معجبًا بشعرها وتحبّ لو تكون مشطها الصّغير، أنا كنت أجلس في حديقةٍ مختلفة، وكنّا نأكل الأزهار، تفضحنا شفاهنا الصّفراء.

هل ما زلت تحتفظ بذلك المذاق في فمك، هل على قلبي أن يبطئ دقّاته، انتظر، لكن لماذا، الآن وقد تفرّقنا، وانتزعت منّا ألعابنا القديمة، كانت قليلة، وتحمل الإشراق.

هل ستصبر الطّبيعة على هياجاتنا؟ الحبّ هذام، قلت لي، مُضيفًا إنّه يعذّب الجسد حتّى يخرج عن طوره، وكم كنت موقنًا من خبَثي، هل نحتاج إلى كلّ هذه البلبلة لكي نمارس حياتنا اليوميّة؛ هذه الأنهارستطفح حتّى الأرصفة، النّور سيطمس مرأى

السماء، ثمّ يصير أكثر هشاشةً من الضباب، يأسًا لا مرئيًا تمامًا يُصار إلى نسيانه من قِبل الجميع، ونحن أيضًا...

ها أنتذا، سأتوقّف عندك، والضحراء التي أحملها في ستجلو عاصفتها. كانت السماء ليلة أمس جميلةً بشكلٍ يدلّ على نفاد الصبر، أخذتنا إلى ما وراء الأشياء التي أبوح إليك بها الآن.

إلى أين ذهبنا؟ المسافة سرّ. لماذا لا نستطيع أن نخترق البُعد؟ هل يُمكننا ذلك؟ ما من شيءٍ سيجمع ما بيننا، لذا دعنا نجلس: إنّ محاورةً ما بدايةُ الحضارة. لقد أردنا تأليفها، لكن كفى. لنشرب القهوة.

هناك

هناك، في هذه الغرفة، حيث يوجد الألم، نعم إنّه موجود، إنّني أعيشه وكذلك أنت، حتّى لو أنّني لم أحبّك.

أمام البحر الذي تغطّيه مروخ زرقاء يرتجف خطٌّ من النار، يغمرك تمامًا، وأنت تواجهني بالمدافع، كما واجهتني بالثقافات والحجارة، ولمَ هذا المعدن الرّماديّ المحلّق فوق رأسي، وأنت تستدير باتّجاه الظّلام؟

هنالك أشجارٌ قليلة، الأشجارُ تقلّ وتقلّ، الغاز يملأ رئتيك، ويملأ أعضاءك الجنون. أنا لم أعد في وفاقٍ مع العالم وأنت، لا تدع قلبك ينكسر، إنّ الحبّ سيكسر حاجز الصوت في عروقك وفوق حقول الأرض الوادعة.

لكنّ الأشياء دائمًا مُستحيلة، ماذا عن المُمكن ولمَ الغياب؟ هل نسي البحر حكايته الملحميّة؟

اسمع، اسمع إذا كنتَ ثُبالي (أو لا ثُبالي)، لا تُخطئ فتحسب الخمر غذاءً، جرّب أن تعرف الخوف خارج رحم أمّك، تذكّر بأحشائك، تكلّم من قلبي أنا، خلّص نفسك، إذا استطعت، من غضبي.

هناك، على طول الزّخامات البيضاء التي تتسلّق أدراج السّماء

الناغلة بالطائرات، اسمع، هناك ضجيج، الأبواب مفتوحةٌ على العدم بينما تصارع، وتتأتى، وأتكلّم بلا صوتٍ أنا...

في هُناكيّةِ الزّمان، سباقٌ إلى البحر، انظر، إنّه عند مطرح قدمي وأنت تقف تحت طوفانٍ من البرَد، ولا شيء ينمو، الحنطة والذُرة نضجت وانتهى أمرها، وأنت تتحرّك ببطء، لأنّ لانهائيّة الفضاء بينك وبيني.

هناك، عمليّات السّبر الشّمسيّ لا تني تحظ على قلبي وتخلق فوق جلدي بياضها الخالص، في معدتي، كذلك في بطنك، تمخّض المجزات، وما من رقص هناك، أزيلت الموسيقى لأنّ شجرةً تكافح من أجل حياتها في مُستشفًى قريب.

دائمًا تحت الابتسامة تكمن ثعابين الخيانة، وانظر كم أزرقُ هو الضّباح، محيط رغبتي الأخير! بينما كنتُ أصغي إلى مختومي المصير، كنتُ تتمترس خلف ذكريات الموت، ولمْ كلّ هذا، أين ذهبوا جميعًا، القوارب، البشر، أين؟ دائمًا إلى مكانٍ سبقَ وأن تركناه. ينابيع الماء البارد تتعرّج عبر أجراف بلد الآخرين، وليس بلدي أو بلدك قطّ.

الجبال تُحيط بي، الجداول تغزو نباتاتي، لماذا لا يُفرقون آمالك بالغزو، ويكتسحون قبر أبي؟

إنّهم يأكلون الخبزَ الحافّ، هنالك، تحت رعاية رغ[5]، وهنا يتضوّرون جوعًا وسط الرّفاه، وعندما تقف هناك، محدّقًا فيهم، يرفضون أن يروا أنّك تحترق بنارٍ تغذّيها الحجارة. مجرًى يابسٌ لنهر، شرٌ، لا شجرة، ولا شوكة... هنا، وهناك، تلتقي في هذا النّهر، وادي الأموات هذا.

هناك

هناك، حيث أنتَ (هل أنا موقنةٌ من أنّك في المكان الذي أفترض أنّك فيه؟) ثمّة حياة، ثمّة نماء، كما يبدو، ظلال...

حواليّ، هناك حياةٌ أيضًا، وفرةٌ منها، بعوضٌ يحلّق حول

مقعدي، صراصير في السرداب، ستائري من أنفس الحرير بالرغم من الفقر الذي يشعّ عبر الليل والذي اخترعت من أجل قمعه البنادق، تعرف ما هو معروف تمامًا، أننا نجمع الفقراء خلف القمامة ثمّ نرمي بهم مع براميل الزبل إلى ما وراء خدود البلدة.

لا أحدّ من آلهتنا فقيرٌ لذا كيف لنا أن نصلّي لها، أين الوعد، أين الجنائن المعلّقة؟ لمَ القمر خجولٌ هكذا الآن بعد أن قِسنا أبعاده بهذه العناية؟

اسمع. مرّةً أخرى. سحرُ الكلمات يعتملُ. هناك، على الجانب الآخر، أيّ جانب، سرعان ما سنكتشف، أنّ الموج يرتفع زبَدًا، أنّ قاربًا يلجّ المرفأ، لقد رسا النوتيّ، سيُتاح لي أنْ أثق به رغم هدير المدفع، وثفة طعامٍ يقدّم للأكل، هيّا بنا نأكل، طالما نحن جائعون.

الرّعب، إنّك بالرّعب موصول، يعرف الأطفالُ اسمك، إنّك ترفع درجة الحرارة، أين سيرقُد رأسك عندما تصير الضّجّة غير محتملة، هل ستطردنا خارج هذه المعيّة، بعيدًا عن كِبر النّهار؟

كلّ هذا كان مقصودًا أن يكون: هذا الألم، تعني، الزّئبقُ في السّمكة، سمٌ يأتي ليرسو في عظامنا. لقد برد دمي، كان كلّ شيءٍ جميلًا قبل أن ترسو، لقد لاحظتُ ذلك، أزعجتْ هدأة الجبال، ذلك المكان لاستراحة الإله؛ كانت لنا أشجار، أيّة أشجارٍ هذا ما سأرويه لك فيما بعد، لكنّها تغمر مجال رؤيتي برمّته، وأنت من غيّمتْ تلك الرّؤية، لأيّ سبب...

هناك

الأنهار تخلط في مياهها القلق، البحر يتألّق، مقلّبًا بتدرجاتٍ لونيّةٍ مختلفة، تلك التي رأيتها عندما عبرتُ في سيارة، عيناي نصف مغمضتين، والشّمس آهٍ تميل جانبيًا والمدينة الأرجوانيّة تُهرع نحو الأفق!

تصعد الرّغبة وهي ما تزال مخنوقةً، هناك، حيث يكوّم

ماضيك على ذكرياتك التراب؛ إلى أين تذهب الأمواج بهذا التواثر، في حنينها إلى الكون، كما تحنُّ أنت؛ لكن هل ثمة ما تسعى إليه؟

ذهني ينزلق على الأشياء، هذا الكرسي، هذه الغرفة، الشوارع الجانبية، اللقاءات غير الوديّة... أعجب إن كان صوتك- إرادتك- سيعلو نحو السماء، هل هذه الأخيرة فارغة، هل الملائكة من نتاج الأرض...

الوقت بعد الظهيرة الآن، والبحر مالح، هل تصلني ذراعك، هل أنت هناك، تسبح بشكلٍ خفيّ، أم هل أنا ضائعةٌ في ضبابٍ رهيفٍ ووديّ.

آه كم قديمٌ هو الفضاء الذي نعيش فيه، أخضر، لبضعة أيّامٍ فقط، يتلاشى؛ القصبات الطويلة تُحيي الصّيف، والأمواج تتواثب، أين الأطفال الذين لم نُرزق بهم، بالرّغم من الشّاطئ، لمَ كلّ هذه النعومة...

الآن إذْ تجيء، قُل لي، تكلّم، هل ثمة ما يسقط، هل نحن في حرب، هل ظمأ الأرض يطالب بالدّم، هل الغيوم تتحرّك اليوم في أزواج؟ الجبل فنبسط وقربٌ من طبيعتي، في جفافه، في شيخوخته، في مناعته أمام جيوش الشّرّ. هل كِلانا مهجوران يا تُرى؟

كيف سأوضّح أنّ البحر يتحرّك بينما أشعر بالسّكينة وأنّ درجة الحرارة ترتفع في الشوارع مع ارتفاع مستوى اليأس...

هناك

عندما يلتقي الماء بالسّماء يبدأ الفضاء بالتّدحرج إلى الخلف. فعيذا وفاقة مع أصله، بانتظار أن يُختزل إلى ديمومته، وفيما بعد، سالكًا في ذلك الاتّجاه، إلى لحم، إلى دم، إلى جلدٍ وأظافر... أين ذلك المكان في جسدي لاحتواء كلّ هذا؟

«ربّما» يقول الدّوري، ثمّ يقول «إنّني أصغي»، ويغطّي نفير

الضباب على صوت المحيط. إنني أجلب أطنانًا من الورق في حقائبي وهل أميركا حقيقية، أحلم بها عندما تفلت مني الأمور. هل هناك من يسير في براريها العريضة، على سبيل التغيير؟

ومتى المتى، متى السؤال. أين الإيقاع؟ المحيط يدخل من نافذتي.

هذه الضيحة لا تنكسر كالزجاج، ليست بحاجة إلى أبجدية. قلبك يرتعش على طول جدران المدينة التي ولدت النور، فجأة، تحت البروق، أي نعم.

زائلٌ هو الجسر الذي سيحملنا إلى حيث لن تغرب الشمس. في الهواء الورديّ تنفتح جبال الغرانيت. قطعنا مسافاتٍ طويلة وأعوزتنا الطاقة. لم نخف من الليل رغم أنّ العتمة كانت كثيفة ولم ندّعِ أنّ الغيوم سوف تكون سخية. الحلم الفستحيل زارنا في النوم. لم نستيقظ لكي نتأكّد من الفجر.

هناك

كلّ هذا الغمّ في كلّ هذا الجمال، هناك... لم هذا العدد الكبير من العواهر بين الرّجال؛ أركان الشوارع، القُمامة، البوليس والذّباب الذي يقتات على الجثث، الحرارة، الضّيق؟

لا تساوم على ممتلكاتي. إنّها ربّما لن تختفي. هنا، حوالى البيت، تبعدُ الحدوذ المعرّفة هديرَ البحر عن رأسي. إنّك تختبئ خلف أشجار الورد. أعرق أنا كلّ ليلة، وجهك يواجهني بحضوره الدّائم.

النّساء بيكين تحت أرديتهنّ السّوداء، إنّهنّ يتسلّقن السّقوف ليرمين الأزهار والرّزّ بدل القذائف اليدويّة، أرجوك أن تصغي، هل تتجادل معهنّ أم معي، لمَ البحر أخضر عندما نتكلّم، حين أتذكّر جدّيّ الذين لم أرهما أبدًا- كان ترابهما ينتشر فوق التّلال حتّى قبل أن أولد- وتظلّ تسألني إنْ كنتُ ما أزال على قيد الحياة وما من جوابٍ عندي على ذلك.

تجتمع التيارت في جسدي بينما يسبح وأصير ماءً، جزءًا من الماء. الـ«أنت» هو دائمًا «أنا» لذا يقطن أحدنا الآخر في فرادتنا التي لا حلّ لها.

عميقًا في نومي، كان الماء يجري وقال صوتك هناك حرب، كان المستقبل يفكّك إلى أجزاء، وهل الحبّ محتملٌ، فوق سكينتي يطفو سؤالك.

نعم، بدايةً من ومن، تنفجرُ المذنّبات على جوانب الكواكب الجريحة. الفضاء أفلامٌ بالأبيض والأسود، وجلدك يبدأ بالاحتراق.

من الذي ينهش الجبل عندما يجلس عليه القمر؟ قبل أن توجد الذاكرة كان هناك قمرٌ برتقاليّ، وعلى ضوئه مضيتُ، سائرةً، مسافرةً تنتمي إلى كوكبه الثوأم، وكنّا وحدنا ولا أدري لماذا.

الحرارة هذه تثقل علينا بضغطها، ثقة شيءٍ سوف ينكسر في هذه السّرعة، هذا الرّعب.

هناك

عندما يكون «هناك» ويثقُلُ الهواء تدرك أنّ للشّمس ثقلها وطالما إنّني أعرف درجة الحرارة بشكلٍ حميميّ نكفّ عن السّباحة وتجعل الرّطوبة عيوننا تتثاقل فتسحب نفسك إلى الباب.

هل يمكننا أن نتكلّم عبر الخدود، في حقلٍ عارٍ حيث العصر البرونزيّ ما زال، والتماثيل الحجريّة تنتظر طيلة الوقت، والطّين والدّم على قميصك الآن، وما من ماءٍ قريب.

أين كنّا، فلنقل في القرن الأخير؟ تحت أصابعي يجري جدولٌ صغير نحو الحدائق وأعجبُ لمن هي، وهل علينا أن نعرف من يملك البساتين؟ هل يمكن للواحد أن يمتلك الألق الزّائل للينبوع؟ هل سقت الآلهةُ نباتاتها في هذا الجزء من العالم؟

هل تتعبّد، سرًا، لصورة أبيك المؤطّرة أو هل ينبغي لي أن

أستعيد ذكرى مصباح أمي الزيتي، أيقوناتها المعلّقة فوق سريرها، قبل الحروب والهزائم التي محت صورها المقدّسة، ضياء الشمس الذي جفّف الحبر تمامًا على أوراق العائلة.

هل نحن جميعًا نقوم بنفس الإشارات في مطابخنا؛ عندما تنزف الظماطم هل تشعر بالانتصار؟

أعرف أيّامًا يختفي فيها البشر، فجأة، مثل سلال الفاكهة، وأولئك الذين يبقون بعدهم لا يبتعدون أبدًا عن نوافذهم...

هناك، في ذلك المكان، عبر شارع أكبر من عدّة بلدان، ثقة شيء يحلّق ويحشو السماوات كما فضاءات ذهني المُتباعدة؛ في ذلك المكان حيث لا تجري القطارات...

بمعزل عن حركيّة الأشياء التي تحيطني، ألاحظ أنّنا سجناء الحبّ والكراهية، أنظر، العشب ينحني تحت الرّيح، العاصفة دمّرت القُرى، آه ماذا كنت أريد أن أقول، ها نحن نصطفّ..

هناك

غبارٌ. مساحيق. نساءٌ يلبسن زينة الموت الورديّة اللّون.

هل تحبّ النّساء؟ أعني، هل تشهدُ توقهنّ للسير أمامك، إذ يصطحبن الأرزاء؟

أين أنت؟ من ليلةٍ ساخنةٍ في تموز تأتي ذكرى أسواق دمشق المسقوفة، وفي بحثي عنك هل ثراني أبحث عن العطر الخاص للثبغ ومعجون الحلاقة اللذين كان يستعملهما أبي؟ آثارك دمّ عقلي بالذات... أين الأين، ودائمًا...

هناك، في وسط هذا اللهف، أرى شحوب المخطوطات المنبوذة، وهناك هذه الكأس التي لم تشربها من الماء، إنّها ستساعد غِرسًا استوائيًا ما في رئتي أختك وسوف أشعر أنا بالأسف، سيكون الأمر بلا فائدة، ثمّ سأتابع الاحتفال بأحلك ساعةٍ للقمر.

الريح تعوي حقًا في حرارة الصّيف، غير مرئيّةٍ بالنّسبة إلى

الجميع، في مناخٍ كهذا ترتع الخيانة ويمتلكنا العجب ما إنْ كُنا سنتحرّر ذات يوم.

على سطح البحر المضطرب ثقة طرقاتٌ كبيرة تؤدي إلى مزيدٍ من الماء، الصَفير يؤدّي إلى الجنون، من حيث أقف يبدو أنّني غيمٌ وُلد في لا مكان، شبيهٍ بالحافّة الملوّنة للعدم.

لا. لا تفعل. لا تتبع التحريمات. إذا غرقت في يأسي يمكنك أن تصير ذاتي الأخرى، لا تصز أبدًا ما هو أنا، أو، إذا شئت، ما ليسني، هذا الشاب الذي يأتي بعد أن اخترق الجدران، هذه القلعة، حاملًا دجاجاتٍ مقليّة ورسالة القبيلة، التي تفصحُ عمّ؟

هل ستكفّ الأسئلة قطّ؟ هل ما زال الأموات- بعضهم، على الأقلّ- يعجبون إنْ كانت المعركة ستنتهي بالنّصر، رغم تملّياتنا للمدن التي اختفت؟

أبكرُ شمسٍ هي مثل تلك التي غربت، في كلّ مكان، في الاسكندريّة، من يمكنه أن يتنبأ، ومع ذلك هناك هذا النور الرّقيق...

هناك

ترفّ الطيور بأيّها، الشمس تغرب على التاريخ. ونحن في حرب.

ولِمَ هذا الحضور، هل هذا الحشد يعنيك أو يعنيني، هل يمكن لي أن أمتلك أيّ شيءٍ لا يشاركني فيه الغير، وماذا سيكون؟

هذا اللايقين؟ هناك كتيرٌ من الحدائق مليئةٍ بلاجئين هربوا من ماذا، لماذا؟ لينفذوا بجلدهم، ولقاءاتهم التالية بماذا، دعني أسأل.

أنت مولعٌ بالألعاب، في هذا المكان تمامًا، لِمَ ينبغي لحقول الماء أن تتبخّر بهذه السّرعة، كما أرى الأمر من هذا الوضع...

قِطعٌ من الفضاء تتناوب مع جذوع أشجار الموز، خيوطٌ من النّور تتحرّك فوق الجرح، أجفاني تمرّز أصواتًا بإلحاح، سيّارةٌ

مصفّحة تخترق الضفّ، الغزوات تقلق الغيوم، هنا في هذا المكان.

هناك

هناك، قبالتي، من دونها، تنتظر روحي المبتورة في مقهى على ركن شارع، قريبًا منها، من شقّتها، من زنزانتها وسجنها ومع ذلك ملكوتها، وهناك عبر الموسيقى، هل أنت في أورنا، أيّة أورنا، تلك السالبة، أورنا الظلّ، تلك القريبة منّي، منّا، تلك التي تعرفينها والتي أنتجت شعراء صائحين، منفيّين فتأتئين، رخالةً بطوليّين!

هناك، حيث ينخسُ الألمُ أيضًا، ولو بشكلٍ خفيف، عندما تنظر إليه امرأةٌ وهو يحلم بقاربه الشّراعيّ، وهي تحلم بملاءات السرير والنّوافذ. هل أنت هذا الرّجل- أو هذه المرأة- هل أنت أنا، ذاتًا تفجّرت وتناثرت أشلاءً، منحيّةً جانبًا على الدّوام، خارج المسألة، خارج مجال نظرك، وسبيلك تخترق سبيلي؛ أنت لربّما بذرةُ الأرض الخبيثة، وأنا، القمر، من المحتمل أنّني مصرّ وقد ولدتُ ثانية، نعم، هذا محتمل، كالشموس التي تنتظر ما وراء وخلف جميع الآلات السابرة التي نبعث بها إليها.

هل أنت، هل أنا، هل أيّ أحد هو- يٌ، هل أيّ أحدٍ ين- وجد، هل المادّة حقيقيّة، كما أنّنا حقيقيّون، لكن ألسنا حقيقيين لأننا نموت والمادّة لا نهائيّةٌ لذلك لا يمكن أن تكون حقيقيّة؟

هل تؤمن بالعداوة، تدمّر الثلال لأنّك لا تستطيع أنْ تقتلني، هل أغطّي الأرض بالإسمنت لأنّ شيئًا ما مات في داخلي حتّى قبل أن أولد؟

آهٍ كم من المؤلم أن نشهد عبور الزّمن بشروط الأجساد الميّتة والهيامات الضائعة، وهذه المسافة، ما بيننا، منيعةٌ على العبور، وكلٌّ منّا يدري من الذي سيموتُ أوّلًا، أين أنا وأين أنت؟

هناك

في مخبأ قصري الأخضر، فوق جسرٍ ما، تحت ظلّةٍ من الضّياء الفتلألئ، عبورًا إلى هناك، بين الأغصان القاتمة وأرواقها الفرتعشة، ضائعةً أنا في عطر الأزاهير الصّفراء، مأسورةً في النّور المتسلّل للمدى.

هل تُحصي سنوات غيابي، مُتذكّرًا لقاءً أوّلًا، مكانًا، ساعةً؟ هل كنّا أعداء آنذاك أم هل حدث ذلك فيما بعد؟ ليس هنا، لا، بل في نقطةٍ ما في الماضي، داخل غرفةٍ ذات مصاريع مُغلقة، وأين انتهى هذا كلّه؟

كنتُ صبيًّا يركب دراجة، يسوقها في زقاقٍ من الأيقونات، ولا أدري لماذا كنت لا تحدّث أحدًا آخر سواي.

عندما يصير المناخ ذات الواحد برمّتها، ينقلب البرق كلامًا والرّعد يغدو مقامًا. ها أنت تجلس على أرضيّة بيتك المرصوفة بالحجارة ترقب الموسم وكيف يسري.

أين، هنا، على هذه الأرض، عندما لا تأتي القطارات ويبقى الحصار، سأكتشف من يأتي إليّ بالموت، في هذا النّفق الأطول من الليل.

هناك

في مكاني هذا الزّمان مقطوع، الموت قد يكون بدايةً، نقطة البدء لثورةٍ ما: في السّكينة المُحاطة بأعلى الأشجار، وبعد ذلك الجبال، وما وراءها، فضلاتُ التّاريخ...

هنا، أحمل «هُناي» مع حقائبي؛ جسدك تمثالٌ يتفسّخ، أنسَ إيطاليا، سفوح تلالها المسمومة، دعنا نعبر ذلك الجسر قبل أن تتساقط أوراق الخريف.

يمكنك، إذا رغبت، أن تكنس أرضيّتك ببرشمان عائلتي، لكن حذار، إنّ الريح ترتفع، الهواء يتمعدن. أحيا في ألقٍ يجدّد حيويّته الفاعلة.

هناك تنتصبُ شجرة. أنت تدفع الضّحراء قُدمًا. أنا أجلس

وساقاي مطويّتان تحتي، أين؟ على الحافّة؛ وهٰنذا، بحرّ من الغبار.

أعمقُ هو النّسيان أعمقُ هو الإنسكان. بنينا إمبراطوريّات بلا حدود. على أنّ الخيول أرادت أن تكون الحقول مسوّرةً لخوفها من مناجم الملح.

أهنالك لغةٌ للعشّاق لا حاجة بها إلى العُشّاق؟ هل نتبادل سلسلة الأنساب فوق جثّة شاعرٍ مختومةٍ في ضريحها؟

هل لنا أرض؟ هل الشّرفات لنا، هل دلّينا سيقاننا فوق حواجزها، هل كنت طفلًا أجعد الشّعر وأنا، لا صبر لي على بلوغ سنّ الرّشد؟

إنّنا لنعيد الأمواج، أليس كذلك؟ ثقة طيورٌ غريبة يُصار إلى طردها، من قبل القبيلة كما أفترض. بينما تحتدم المعارك، عندما تنتظر صفوف طويلة من الذّكريات أنْ تبعث، يستمرّ ذبح الرّعاة ويغدو الموت ظلًا متحرّكًا على شاشة.

أصير حيوانًا مفترسًا، يبحث عن إثباته الذّاتي في الجثث- كنايةً عنك وعنّي- لكنّه حقيقيّ بالنّسبة إلى أولئك الذين تركوا وراءهم آثارًا فتفسخةً كهذه.

هُنا

ما هو «هنا»؟: مكانٌ أو فكرة، دائرةٌ مرتكزةٌ في عين الله، الإطار المتجمّد لموجةٍ كونيّة، جوّالةٌ، محتومة؟

هنا، حيث الحرارة تُلطّف وتُسكّن، عندما يستسلم الجسد قبل أن تصله الإغواءات، وهناك، حيث درجة الحرارة تُغلي العقل وتجعله ينفجر في فعاليّاتٍ مُفاجئة؛ هنا نقطة اللاعودة...

هناك

الجيوش تُغرق نفسها في هذا اللايقين، الخيول تعاود الظّهور، لكن لمَ، هل يُمكن لهذه الأرض أن تستمرّ في خلق الأساطير

بينما تعيش في ظلّ شرعك، بقوانين من، في أيّة لغة- أم؟

النّجوم في الوديان، كالعادة، تفوق الينابيع عددًا، وأعجب إنْ كان أطفالك سيمشون على الأشواك والعاقول، لماذا اخترت هذا البؤس أم أنت وجدت فيه شيئًا من الأبّهة؟

اسمع. اصغِ إلى الرّيح. ليست الذّئاب هي التي تعوي بل رجالك الذين ترتعد فرائصهم من هياجك. أقول لك أنّ المستقبل سعر اليوم ثمّ أراك تضحك كما كان يفعل أبي.

أمامنا صخر الغرانيت. خطّ الحبال يرفع نفسه فوق الأفق ونحن نحتفل بانتصاراتك، لا بانتصاراتنا.

فحالُ هذا الفحال في محالتيه. الظّلال، رفقاؤنا القدامى، تنطق بهولها الخاصّ. لماذا ينبغي لي أن أفكّك أبسط قوانين الطّبيعة- كيف لي أن أفصل ظلّك عن جسدك، وكيف سيعود ذلك بأيّة فائدةٍ على الأمم التي أمحضها ولائي؟

ستركض الخيول من هنا إلى اليافطة التي زرعتها في الغابة، تلك الأقرب من هذه الصّحراء الشاسعة، وهذه المسافة، بين هنا وهناك، سترتسم حدود المصير.

يتذكّر الواحد أنّ الخرائط المطويّة تُزيح البلدان جانبًا، وبجنب هذا الفضاء تجري الوديان إلى البحر، ذلك الملوّن، وأنا يغلبني الخوف من الكمين بينما تعتقد أنّ الحصى متفجّرات؛ إنّما تُسمع الانفجارات من الضّفّة الأخرى للنّهر. خائفةٌ تجري المياه.

ثفّة أوراقٍ ناعمة تغطّي جرحي وأسمع شرايينك تنبض لأنّ هناك طرقاتٍ سيّارة في مجرى دمك ونحن لا نستطيع أن نغيّر مجرى الزّمان ولا أن نأمر المذبحة بالتّوقّف.

يكمن الظّلام في عينيك، لا، لا توهمنك الظّلال المسقطة أنّها تحريّاتٌ سريّة، أعرف جيّدًا كما كنت تعرف، ذات يوم، هناك، بعيدًا عن مسقط رأسك، أنّ الذّكاء من أجل أن نصنع الخبز، ستعبر خطواتي في خطاك كما أنّ ترابي سيذرّ رماد عظامك، وما من ريحٍ في هذا المرفأ الذي استبدلناه بالمطر الذي لم يهطل

أبذا، آه يا رعد ليلتي الوحيدة!

البحر، هناك، معدني. إنه «هي» الأولية، في هذا التركيب المادي الذي خلقك، وخلقني، وهذا الوعيد الجوي متى يكون، من أجل ماذا... ما من سعادة تضفرها أيدينا.

البحر من شدة الضغط يغلي. أنت جديد على هذه الشواطئ. هل خكم عليك أن ترقبني إذ أتمدد على هذا السرير، على الشاطئ، هناك، بينما الفضاء يجزز ويفيض تحت بظانية من النور كهذه بحيث لا يسع الذاكرة سوى أن تتحول إلى عرق وأتفه لمعة من المجد تبدو سخيفة...

هل ترك الجنس البشري الهنا والآن ليتسابق نحو الثقوب السوداء؟ هل نعترف بالفشل الماحق؟ يبدو أن الحرارة قد أسرت النسيم، أن الجبال عاجزة عن تخطي ارتفاعاتها المرسومة.

هل من الضروري أن يعي المرء أفكاره الأكثر قتامة، بصمت، بسرية، في الهواء البارد، عبر الشوارع؟ هناك أنصاب لا تحصى للسويداء، هنالك، من أجله، من أجلها، وفي البداية، من أجلي.

هناك

أو هنا، في الصباح الباكر، كم هو باكر تسألني فأجيب دعنا نمضي مع النهار، الحوار دائما شيء سياسي لأن ذاتين تشتركان فيه واحتمال أن يقاطعه الموت حقيقي دائما، دائما هناك، وقد يحدث هنا، في أي وقت، عند الدرج، قرب النافورات، والموسيقى، ودعنا نشرب نخب أشياء لا ثقال!

هذا الجدار، حلقة برونزية غائصة في الأرض، والأرض تغوص في ذاتها؛ عندما كنت أغرق كان ذلك في بحيرة؛ كنت تمتلك- هناك، على أفقي- هذا، إلى جانبي الأيسر- الطريق التي تؤدي إلى بيتي. الطيور كانت كثيرة تستقبل الربيع. هل أنت مولع بالطزاجة الخاضة التي تملكها تلالنا عندما يتحول البحر إلى

سجّادة، تلك هي الساعة التي ينظر إليه البدو فيها بفرح. إنّك تجلس دائمًا قبالتي على المائدة. لثبذد هواجسي الغريبة.

في الحرارة، في انسخان الأرض، هذا الامتصاص لحرارة الشمس من قِبل الأرض، أحاول أن أصل إليك، في جوار البحر الغارق، أيّ بياض يحيط بي وأيّة مسافةٍ بين رسائلك وأجوبتي!

هل أنت ابني، أنا متأكّدةٌ أنك لست، ولن تكون أبدًا، فالوقت دائمًا أبكر من اللازم، أو يكون قد فات، عندما تُغلق الأبواب، آهٍ لحركات الأجساد على حافّة البحر...

في مكانٍ ما، كان من الممكن أن تكون غضب أبي، هو الذي لم يفه بكلمة بعد أن بلغ الأربعين، وتدري، في بقعةٍ ما هناك، تحت حجرٍ أبيض، ما بقي من عظامه يُطالب بالعقاب، وجواب البحر مجزّد موجةٍ تنتفخ، برقّةٍ شديدة، بينما ينتظر الهواء منه أن يعطي إشارة: أحيانًا يُفسح الجمود مكانه للفعل، أيّ فعلٍ علينا أن نرغب فيه، أيّة مدينةٍ ستقطن فيها، أيّها تلك التي ستُفضي إلى الراحة في قلبي؟ أين نذهب من هذه النقطة؟

هناك منفذٌ للأرواح التي تسكن البحر، هل ستتدبّر أن تضطجع ما بيننا، هل الباص يجري بلا هدف، هناك حيث لا يحتاجه الفقراء؟ بعض الناس يأكلون التراب بينما يأكل الآخرون بطاطس مقليّة... أين تحدث هذه الأشياء؟

ما هي حلقات الوصل بين هذا الفضاء وبيني؟ إلى أين تؤدّي الأسئلة بخصوص لا نهائيّة الزّمان والفضاء؟ الحضارات المبنيّة على أسس الانتقام ستختفي. كذلك بالنسبة للحضارات الأخرى. هل باستطاعتنا أن نمضي في التفكير آنذاك؟

موقعٌ ما، موضعٌ، التنفيس يحتاج إلى أميالٍ مكانيّة. هذا إذا أردت أن تصل إلى الأسود. (النسيم في مصر والحرارة في سورية). لقد اختفت الجبال. إلى جوارنا تنتظر العواصف، ستمطر أحجارًا ورصاصات. في مكانٍ ما، بعيدًا عنّا. آهٍ كم أبيض هو البحر عندما أفكّر بك؟ في مكانٍ آخر، في نهاية الأمر، لن

يحتلّ الأموات أيّ مكان.

أتعرف ما تفعله الحرارة؟ أين؟ هنا بالضّبط وفي الجوار، إنّها تذيب روح المرء. تخلق حسّ الاستسلام. وإلى من يستسلم الواحد؟ سيكون من السّهل أن يُقال، إلى أحد. سيكون منطقًا محرّفًا أن يُقال: إلى الكلّ. إلى العدوّ؟ من هو عدوّي؟ من المفجع دائمًا أن يكون لنا عدوّ. يمكنني أن أرى تلالًا من النّمل تضيّق الخناق.

أن نشحذ العقل بسكّين اليأس. فضاءٌ خالٍ، سهم. هنالك، مقابل عينيّ، متاهة الفراغ. كبيرةٌ وباردة. علينا أن نعكس مجرى المواسم لتوافق هذه الجثث، لأنّ للظّمأ الأولويّة، ننتج دمًا وليس ماء.

تحت هذه البطّانيّة من البياض، على الطّرقات المقدّسة للقوى الضّائعة غالبًا ما تكون المحاورةُ مواجهة. الكلمات جُزيئات هواءٍ تذرّرها الريح. كم من الصّمت في عروق الشّخص: لا نستطيع أن نتحرّك في وجه هذه المعركة الأبديّة. التي لم نعطها اسمًا.

هناك، على البُعد الذي تميّز فيه عيناي نقطةُ بدل ذبابة، أرى رحلاتي المتراكمة. هل زرتُ بلادك؟ أيّها كانت؟ كم أقمتُ فيها؟ هل تقرُّ بثقة مكانٍ على أنّه لك؟ عندما أضحت عظام الدّيناصورات بثقل بيوتنا ماتت هذه المخلوقات. أليس كذلك؟

آهٍ أيّها البرق، أين سنكون في يوم الحساب؟ هذا الجبلُ لن ينقسم. ولا هذه البريّة. هل يمكن تسمية الأنهار بعد اختفائها؟ تتصاعد الأسئلة في دمي منذ دمار سومر. إلى أيّ مدى؟ المدن، ميّتة أو حيّة، تثقل العمود الفقريّ. أين أريخ شجرة الآس، هل وجد لنفسه مكانًا؟

هناك

نحن لا نرسمُ خريطةً للعالم، في حوارٍ ما، تحت ثقة فيء، بل غايتنا أن نتقاسم رغيفًا من الخبز وقطعةً من السّمك، وذلك

عزاء، لكن قل لي، أين كلّ الرّجال الذين عرفناهم؟

الجنادب تغنّي مجد الضّحى، ثمّ يسوء الطّقس، هناك فيضان، لكن في بلاد من، بالسّماح من من؟ مكبّرات الصّوت تُنغّم صرخة حرب، الغابة كثيفة، لكن دعنا نتابع كلامنا، هذه الوجبة، لقاءاتنا المتحذية سوف يُكتب لها البقاء مثلما لتراثنا المعزّف بشكلٍ ضيّق.

حان الأوان لنأخذ استراحةً في هذه الغرفة الدّائريّة، لقد دخلناها، لذا علينا أن نبقى، يُمكننا أن نأخذ استراحةً من كلّ هذا لكن لا يُمكن لنا أن نذهب، إنّ القرن القادم سيكشفُ عن خيبة الخبّ.

هناك

واحد. واحد زائدًا واحد، الكثير مضافًا إلى الكثير. الثّكاثر: للأشنتات على حافّة الضّبر.

هنا، على هذه الأرضيّة الخشبيّة. هناك، على سطحٍ متحرّك وحيث تتلاقى- إذا ما تمّ ذلك- هناك أشجارٌ وحجارة، القمر يحفّ بنوره هذه القطعة من الأرض.

ترفّض على ما لديّ من أرض، ذلك ما يشغلك، هل ثراني أهتمّ؟ ما من شيءٍ مؤكّد عندما يتعلّق الأمر بك، بي، بنا. بهم.

فلتأت دومًا، إذا استطعت. سيكون من الأفضل لو أنّ ذلك حدث ليلًا، دعنا نفكّر بطريقةٍ أفضل، ما من طريقةٍ هناك، فالحدود مغلقةٌ وأنا لا أنام في بيتي.

لو لم نكن مرتبطين بمكان، ماذا يمكن أن يُقال عنّا؟ سوف أقدّم البحر في إطار وسيكون ذلك مؤقّتًا. ليس جوابًا. ولا هو بالسّؤال.

هل المكانُ وهم؟ ألا نذهب جيئةً وذهابًا في عالمٍ لا مرئيّ رغم أنّه حقيقيّ كالمائدة التي أتناول عليها إفطاري؟ وماذا عن اللامكان الذي يسبق ميلادنا وذلك الذي، على الغالب وهميّ

أيضًا، سيأخذنا الموتُ إليه؟ هل ثرانا نستعير الهنا والآن وإذا كُنّا، فمِن مِن؟

هل للخفوق أسس إذا كانت هناك هذه الكثرة من العناصر التي تؤلّف في هذا الإعصار من الاحتمالات الماضي، والحاضر، مستقبلي ومستقبلك، الاقتلاع الدائم للعِلل والمعاليل، في عماء العواطف البدئي، طبيعة الحبّ المبنيّة على التضحية، في جمال البحر الأعمى وفناء الشمس؛ كانت هناك براءة سابقة للأمكنة، وسيكون هنالك صمت، وكلمةُ الكلّ الأخيرة، التي لن تكون كلمة، لا، لا، عند البداية وفي النهاية ليست هناك كلمة، ما من فضاء، ليس حتّى العدم، وليس حتّى نَقص هذه الأشياء كلّها.

هناك

آلةُ الزّمن تحدّق فينا، تاركةً وراءها بياض البحر، تحملنا الرّحلة بعيدًا عن عناد الجنس البشري. المخيّلة ستخلق نصبًا، واحدًا، على الأقلّ، لساعة الغفران. يحدث أنّ الأنهار تتلاقى، والمياه تستسلم لإغواء المحيط، إذا كان حقًا أنّ الشمس تكرّر صعودها واختفاءها.

هناك

ما أقربها. النار واللهيب. هل يمكن لي أن أعرف مولد الريح، سقوط الشمس من مدارها، والجبال التي تطفح متموّجةً غير بعيدٍ عن نظري؟

أين؟ كيف ينسج المكر ألعابه على هذه التلال؟ لماذا تصرخ القطة وتركض جميع هذه الثعالب على خدود الرُعب الأخيرة؟

هناك، لا على هذا الكوكب، يحاول ملاك جانبي الأيمن أن يتحرّك أمامي ونحن نقاتل في هذه المعركة التي لا تنتهي وتغسل دموعك قدمي. إنّك جريح، أليس كذلك، تسقط على الأوراق المحتضرة لهذا الخريف، فلنبعد عنّا الأسلحة، أيًا كان من

يملكها، إنّنا نصلّي لروح المطر نفسها تحت هذه السماء التي لا تُحدّ.

اسمع، التّعب يسري في أطرافك، لقد مشينا طويلًا. انظر، هناك رمل، انظر إليه قبل أن يغمض النّوم عينيك. ثق بيدي، ستعطيانك بظانية، لكن أين ستضطجع، ألم يلقّنك الجيش كيف تستريح تلقاء جدار، أنا لن أعطيك سريرًا من الزّهور، ولا تابوتًا، كلّا، لذا فلتكتفِ بالفيء تحت شجرة السّنديان.

ما هو الخبَ؟ نعيشه بشكلٍ حميمي لكنّنا نتجاهل ما هو. إنّه يشبه الفضاء والزّمان، ومثل هذين التّصوّرين، فهو واضح، فعّال، وعمليًا لا وجود له، وهل أحبّك بسبب هذا القرب، هذا التّورّط الاستحواذيّ؟ لقد ملأت فضائي زمنًا طويلًا، وتسلّلت إلى مياهي، تاركًا لي إشارات، آثارًا باقيةً منك، انظر، ها هو البحر يُغادر، لقد صار ما وراء الأفق.

هناك

مرّةً أخرى. اسمع، بينما أذنك متناغمةٌ مع البحر، هو الذي يعكس في مياهه صورة فتوّته... لم يكون غيتو السود، في سان فرانسيسكو، بهذه القتامة، عند الفسق، بينما يمخّض المحيط هياجه الأبيض وترتدي إفريقيا حزامًا ارجوانيًا ملفوفًا على أفقها؟

هل شحنت أفريقيا أسودها إلى البحر الهادي، هل تنتظر أن تقع السّعادة المستحيلة، وإذا حدث ذلك، فعلى أيّ ساحل، هل سيكون الشّهر في الربيع أم الشّتاء، هل سنستأجر غرفةً تطلّ على المحيط، وتُصابَ بالخَفَى؟

أغمضت عينيّ، هذا الصّباح، أمام صورتك، بعد أن شوّشت رؤياك نظري، وكان ثمّة شبحٌ يقف هناك، على بُعد عدّةِ أقدامٍ من مقعدي، وكانت قطعة الأثاث من طِراز «الشيكر»[5] تقول آه نعم، لقد وصلتنا أخبار الماضي واختفائه.

هل ما زلتُ شابًا أم هل هرمت، مقتربًا من نهايتك، هل لم أعد حساسةً تجاه ما يقلقك، لكن آنذاك هل باستطاعتي أن أحفر ذهنيتك كما يفعل علماء الآثار؛ هل يمكنني أن أخمّن أبعادها، وهل هي قابلةٌ للإدراك من قِبل روحٍ غريبة، هل سنرقص، وماذا لو أنّك جميل، هل سنلتقي بصفةٍ مجهولة، بذوات مغالطة، طالما أنّ البحر مجال طمأنينتي ومثاب كلّ الأسئلة؟

هل سبق لك أن حاولت ارتقاء الهواء بكلّ الوسائل المتاحة لك، الملائكة تفعل ذلك، اعتمادًا على أسمائها، وتساعدها في ذلك الحرارة، وهناك ثمّة دعوة، إنّها تفوّقنا عددًا، هنا بالذات، بحضورٍ يبعث على الاختناق، هذا ما لم نتحدّث عنه أبدًا، هل فعلنا ذلك، ولمَ، ومن يدري...

هناك

ليس بعيدًا عن بيتي اعتدتُ أن ألعب مع الأمواج- أين هي الآن؟ كنت طفلةً آنذاك، ما أبعد المكان الآن، يكلّمونني عن عوالم أخرى، ما يهمّني هو هذا العالم، المتكوّن من الكرسي الذي أجلس عليه والألم الذي يضيّق على قلبي، والنور الذي يسقط الآن خارج النافذة.. أين مقصّاتك، تلك الحادّة والزّرقاء، التي كنت تقصّ بها ثوب أمّك؟

هل أنت في مكانٍ يمكنك أن تسمعني فيه، أمّا هل أنت ميّت، لا يُمكن الوصول إليك بعد، وهل اللّعنة ستتبعنا، لماذا أستنتج أنّ الموسم قد تغيّر، والحرارة قد تدنّت، هل سيكون من الأفضل للأموات لو أنّ المطر تهاطل على الأرض؟

لطول ما كرهتك في المجال الباطني الذي قطنّاه معًا أنّك الآن الطّبعة السلبيّة لذاتي (لا، لستُ ظلًّا)، الزّفير اللامرغوب الذي يغدو، ويا للمأساة، عُنصر الحبّ بالذات.

هناك

دائبةً هي الساعة. صيرورة التجزئة تفترس آليتها بالذات. الحرارة تنتمي إلى مصر والنسيم إلى سورية. فليكن!

هناك، على أرضية الصحراء الحميمة من ذا الذي سيقدمُ نحو فضائي المنيع إن لم يكن عدوّي؟

هكذا، أممٌ عديدة في نهاية مسيرتها ستسكن المستنقعات، خارج الخطاب المفهوم. لقد آنت اللحظة التي لن يحتاجوا فيها إلى حدودٍ معينة. الصحراء تجمعُ ما تقسمه المدن.

هناك ضغوط. فطلقيةُ المادة. باروسيا[7]. هذا البدء، والرحلة أمامنا. أفقيةُ الضياء. حقيقة الشمس (أيّة حقيقة؟) هنائيةُ الأبد.

الكلامُ، في كونٍ قيامي، محتوم المصير. تطلّعْ إليّ بينما تقدر عيناك أن تريا؛ هما أيضًا لن تبقيا على قيد الوجود.

من أين جاءت الريح التي جلبت للشعب الخديعة؟ إنّ الأسئلة تشيخ لكن كم مرعبةٌ هي الأيام التي لن تكون فيها أيّة أسئلة.

سويداءُ الموسم تنتهي على قلبي- الذي أراه في شكل جبل- وماذا يلي ذلك، النور والهواء على عتبة المعبد. لقد هاجرت الآلهة، تاركةً الأرض- والأمواج الصوتية- في فوضى شاملة، وثقة شروقٍ معيشٍ يتدفّق في جميع زوايا العقل.

أنا قريبةٌ من أوردتي وشراييني قدر الإمكان، أنت غائب، الغيوم تغطي الجبل، ربما كفّ عن الوجود، لقد أضعتُ طريقي، إذًا فهو ليس ضبابًا، لا، إنّه غير مسفى، وهذه السماء، التي ليست كذلك، هي مرآةُ ضلالي.

هناك

هناك، في مفازات الروح، في تكراراتها، حيث نتعجّب إن كانت هناك ثقة اختلافاتٌ بين حجرات العقل الباطنة ومجالي المخيلة الخارجية، تكمنُ المواجهة بين الذات ونفسها.

حيث المكان ذكرى خالصة، حيث الهواء منذر، حيث الخطّ أنحفُ من أفق. أواجه مطالب التعريف، ضغط حقائق كنت

أظنها كفّت عن أن تكون لي.

اسمع، علينا أن نناديك، أن نوجّه انتباهك إلى هذا المكان المعين؛ يمكننا أن ننفي الزمن، لكنه لا يبدو أنه قادرٌ على تجاوز بعده الفضائي، لا نستطيع أن نخون المادّة، أن نربح حيث حاولت الآلهة وخابت.

هناك حجارةٌ في اليونان، وثقة، في نوم الواحد هناك، رخامٌ أبيض، حيث تتحرّك الأشياء، حيث يمكن للمرء أن يختبر نوازع الحريّة، أنت، الزائر الليلي المجهّز بالأشعّة ما تحت الحمراء، تستطيع أن تراني بينما أعجز عن ذلك، لذا لا شرف لهذه المعركة، ما ينبغي قتلة سبق وأن مات، دعونا لا نبدّد الوقت الباقي لتلك الملائكة التي تريد أن تخالط البشر؛ لقد أخفناها لأنّ الأرض كانت فقيرة وينقصنا الخيال، إنّ الآلهة لن تعاقبنا، لسنا مهمّين إلى تلك الدّرجة.

لن نستطيع أن نخلط الإشارات، لا، لن نستطيع، فهي ستدومُ بعدنا. إنّ طبيعتها توجب عليها أن تبقى واضحة، مثلما هي السّماء اليوم، صافيةٌ بشكلٍ لا يحتمل، في كلّ صباح تحدث الخليقة، الشاراتُ موزّعةٌ على الآفاق.

الغمّ الأخلاقي يجعلنا ناجحين. الحربُ فجّة. واضحٌ هذا. إنها تشحذ الرّغبة، المطلقة بين الرّغائب، تلك التي يُقصد منها أن تُفني ما هو كائن وتبعث إلى الوجود ما لم يكن له أن يوجد، أن تُحيل مشروع الحبّ الميتافيزيائي إلى كراهية.

الحرب خوارنا. إنها تأتي بالانفجارات إلى البلد، بأشلاء أعضاءٍ بشريّة، ورسائل الحبّ المفخّخة. نحن محاربو الحزن القدامى، كتبنا مراثينا على عظامٍ لا تُحصى. الكتابة دائمًا، ذلك الصوت المسجّل الصامت الذي يقفز عبر أجيال ليطالب بالأبديّة من أجل الدّم.

ماذا يجعلك إذا تعود إلينا عبر الجبال، في مَحل تفوز، تحت ربقة الشّمس، وآبائنا المفقودين، الألوهات التي نتشارك، من أين

تنبثق الطاقة العمياء، من الأرض، من السماء، من المتاه؟

هناك

تحت القلعة المستحيلة، الاستحالة- التي هي الوقوف- توقع الغيوم تحت طائلة سحرها، وفي هذه الاستحالة، على بعدٍ محدّد، من الذي ينظر إلينا؟ لا إله ولا قطعة من المادّة، بل رغبتك في نومٍ عميق وحنيني إلى نهايةٍ لهذا الدّم المسفوك.

الشروقات فوق رؤوسنا تتحدّى دعوة المدفع، وفيما بعد، من وراء القلعة، هناك الأرض الشماليّة شمالي إيطاليا الشماليّة، ونهرٍ يجري إلى الشرق، وهناك توجد البوسنة، حيث كان لك بيت، وكان لي أقرباء، أم هل كان الأمر بالعكس، هل عليّ أن أملك قوميةً لكي أكون بشرًا، وهل أنت بحاجةٍ إلى أن تحمل كتيبًا من الأوراق إذا أردت أن تحلم، بعينين مفتوحتين، بجبالٍ تزورها الطّيور... هل نحتاج أن نملك اسمًا عندما يسقي الجياع أنفسهم «غياب الخبز» أو القدّيس يوحنّا المحتضر؟

هناك، قبالتي، ترتفع الموسيقى، نونو، لويجي نونو، الذي كان يؤمن بوحدة الكلّ Ayheucho ...Caminantes ، أصواته البدويّة التي تولّد الرّعد في ليل إفريقيا، أين الأمل الذي كان يضعه في بساطة المعاني بينما كان يموضع أبواق قيامةٍ مستمرّة في تزامن الكينونة الجماعيّة؟

إنه الأمس منذ الآن، أعني أنّ اللحظة الفائتة بعيدةٌ في الوراء كأبديّةٍ من الزّمان، لكن هنا، في أخوّة السّرد، هناك هذا الجوع، أولئك الذين يحتاجون إلى الخبز يحتاجون إلى الزّهور أيضًا، وإذا كنت قد جئت لأسمع الموسيقى، فلقد وجد القلب، سارت بيننا إشراقاتٍ صغيرة، من أودية الدّموع هذه تتصاعد ابتسامة تحت الأمطار الأولى للموسم الأوّل، آه نعم! الذي هنا والذي هناك جزءٌ من استمراريّة ما تتألّق في الليل من تلك القلعة، التي نوافذها مضاءةٌ كلّها، وكلّ جدرانها اختفت.

هناك

الأفقُ مسطّحٌ ودائريّ، فوق مستوى العين. عندما يصمت البحر، تُسمع الحرب بأفضل ما يكون. هناك ثوراتٌ بيننا وبين دوران الأرض. كم وحيدةً هي الكواكب!

بينكِ وبيني هناك وفرةٌ من الهواء، من الرّغبات المعلّقة، وذكرياتٌ بكمياتٍ بطوليّة، في هذا الضّريح الذي هو غرفة وفي الطّرق المائيّة الخرافيّة التي هي الشّرايين.

أحببت شوبرت وليس شومان، لماذا؟ هل كلّ شيءٍ يأخذ نهجه بدءًا من وهم؟

هذه المرّة، في داخلي، يرقُدُ جسدٌ مات بالنّسبة للعالم وجاء ليسكنني. الغيابُ يُحييني عبور الزّمان تحيةً عابرة.

هناك

في هذه الساعة المتأخّرة، هذه الجزيرة، هذه الحديقة، ماذا نحتاج؟ عندما تتساقط من يديك قطرات الماء- بعد أن غسلت وجهك- تبرد منشفتك وتدعو حرارة الصيف لتغطّيني بسديم غيمةٍ هائمة.

أردتُ أن أكون الغرفة بحدّ ذاتها لتعرف أين تجدني؛ أردتُ أن تكون حصانًا، لكنّهم لم يبنوا أيّ شيءٍ من أجل الشّعراء العرب.

غدا البشر معدنيين. يمكنني أن أسمعهم يطالبون بالانتباه، لكنّ الله استسلم لإلهه الخاص. لا أحد ينكر الصّعود ورحلة العودة. الصّحراء تزدهر بالنّدى، الآلهة الأقلّ شأنًا تقيم حفلة. تبقى لنا الأصوات.

هناك

نحيا دائمًا في موسمٍ ما، أليس كذلك؟ المواسم تتتابع. اليوم رأيت بعض الأوراق المتبقّية تتساقط من شجرة الزّيزفون

وفكّرت بدموعي أنا. لا فائدة تُرجى من الإشارة إلى الرّبيع القادم. الطّريق أمامنا طويلةٌ وفارغةٌ تمامًا. البحر مسردةٌ دائمة. إنّه دائمًا ظلٌّ، رديفٌ، يقدّم نفسه على أبواب المطاعم ومقابر أخرى مثلها. هل ستقول الحديقة لمالكيها الجدد من كنتُ ولماذا لم يعد لي وجود؟

هل يُمكن لي أن أصل إليك أيًّا كانت حالة وجودك وهل بقي منك بعضٌ من كينونة، حتّى لو كانت صفاتها غريبةً علينا، في مناطق غير أرضيّة؟

اسمعي كلمتي، إذا استطعتِ، وانكري مصيرك، إنني لا أطالب بالامتلاء، بالاكتمال، بالانبعاث الكامل، اجلسي مرّةً أخرى على حافّة سريرك، دعينا نستعيد الرّوائح، المخمل، المصطبة، انتظام أنفاسك، وجيب قلبي، أحلى عطايا اللحظة.

أيّة لحظةٍ تقولين، أين مضت، لماذا كان وجهك كالحًا هكذا أثناء التّشنّجات التي كانت توحّد بيننا بشكلٍ باقٍ؟ تلك المعرفة موسومةٌ على دماغي.

هل كنّا حيوانين مقيّدين بالأرض أكثر من أن يقدرا على الطّيران؟ كيف يمكن لشكلك الضّلد أن يغدو هواءً، أو للنّص أن يكون مكتوبًا من قبل.

من قطع الخيط، عشيقتك؟ تذكّري، كانت لك واحدة، انزلقت، وسقطت، والموسم يمرق، أخافك هذا، كنت ضحيّة حرب، أدري...

لقد دخلنا الجنّة، ألم نفعل؟ عكسنا آية الطّرد، أليس كذلك. ما أقصر مثل هذه المسافات.

هناك

أمّ المعارك، أجل، أرض المعركة، الحرب. البعض ينام والرّبطة تلفّ عنقه، أنشوطة الجلّاد.

المدينة جيشٌ يتقدّم. الأشجار ترتدي جلالها مثل راية، إنّها

تؤلّف حرس الشرف. على لوائح الأعداء الإعلانية لا شيء لدينا نبلغه. نخالُ أنفسنا أشياء صلدةً تتصادم لكنّ الوضع مختلف.

هناك طريقٌ تربطنا بالمملكة السوداء ونسلكها بين حينٍ وآخر. في طقس كابٍ رماديّ متدرّجٍ بشكلٍ متساوق، نتوجّه نحو أناسٍ يتحرّكون باحتراس خلف غلائل متألّقة. هناك، ننخرط نحن الأحياء في أحاديث مع الموتى: إنّ أصواتهم خفيضة. الرّماديّ في هذه الأصوات أيضًا، ولَجاجةٌ غريبة مع أنّها ملحاحةٌ في هدوئها. إنّنا نواصل التّخاطبات الضامتة التي كانت تجري بيننا في أزمانٍ أصبحت عتيقةً منذ عهد، وأحيانًا نتمدّد بينهم، بلا نوم، ولا يقظة. إنّ حضورهم قويّ، وسريّ، نوفد إليه حالات وعينا. الكلمات التي تُقال جدّ قليلة، لكنّ الحوار الذي لا مفرّ منه يجري في كلّ العوالم، تلك التي نعرفها بشكلٍ حميم وتلك التي نتصوّرها عن طريق التّناضح، كأنّنا نسبح في منطقةٍ ثابتةٍ من الظّلّ.

هناك

على هيئة شجرتين زُرعتا قرب بعضهما، تحت قمرٍ يهرم، نحن سجينتا حالةٍ دائريّة. الذّكرى تحتاج إلى غفرانٍ أوّليّ. الطّاقات، في تسازعها، ستكسر السّماوات.

هناك، حيث ثقة نار، عندما يتصاقب الخوف من الموت مع الرّبيع، هل سيحتّم علينا أن نكون عشاقًا لا يمكنهم أبدًا أن يلتقوا، قلقين كسطح البحر؟

أيّتها الخليقة المدمّرة! حبّ الحبّ، عيونٌ يملؤها التّراب، أشلاء الجسد المحروق مبعثرة، نهاية النّهاية وخاتمة الانتهاء المختومة بالقرارات الصّادرة من الشّمس، آه يا انبعاثات الرّغبة بعد تدمير الجسد! إذا لم تكوني، كيف يمكن للروح ألّا تموت؟

هناك

قبل أن تغرب كانت فتيةٌ تغمرنا بالألق؛ والآن، بينما نضطجع

مستندين إلى مخدةٍ والنور يتدفّق من النافذة، فإنّ هذه الشمس الفتبدّلة، حاكمة مصر، ابنة النيل العتيقة والجديدة أبدًا، تهبط على الماء والرّمل وتمضي نحو أفق الأرض الذي لا يثبت على قرار.

أين كان ذلك، في أيّة ساعة، لماذا كنت أنتظر وسط بهاءٍ كهذا، متمنّيةً الغياب المزدوج للعاشق والمدينة؟ ما فائدة البكاء على جمال الاسكندر وهو مدفونٌ تحت الرّخام والذّهب؟ هل الذاكرة حضورٌ مقدّس يتكوّن من اللحم، خليقةٌ ذهنيّة تدوخ بضعة أعوام تتخلّلها بضع ساعاتٍ متميّزة وأين تلك المعرفة التي تهمّ وحدها- معرفة جسدي بظلّه، ومعرفةُ روحي، إذا كانت لي روح؟

ماذا ينتظرنا، ماذا تفعل الأبديّة؟ لم كلّ هذه القسوة عندما يكون الطّقس رائقًا والجسد مُعافى؟

لقد جرّبنا النّشوة في الظّلام (الواحد مع الآخر)، غالبًا في الليل، في الهُنا والآن للمدن الملأى بالعرق والحرارة. كما أنّنا مُتنا مرّاتٍ عديدة، أليس كذلك، من شدّة الحبّ والفراق، بحيث أنّ النّهاية عندما تأتي، ستكون نوعًا من العودة المُريحة، رغم أنّها مارقة. لقد بلغنا المُطلق، ألم نفعل، لحفنةٍ من الساعات، في ثقة مكانٍ ما- بين، ما بين «أنت» و« أنا».

هناك

العداوة جعلت منّا عشّاقًا، وهذا ما جعلك تموت، هناك، على الخطّ، بين المُحيط والرّمل. في ذلك الليل عرفت أكثر لقاءاتك جهامة، إنّ جرعةً زائدةً من السّعادة تقتل تمامًا كما البرق.

هناك، تقدّم موكبٌ من النيران باتّجاه الغابة. كان بحاجةٍ إلى وقودٍ إضافيّ ليغذّي عاطفته. هل الدّمار جزءٌ لا يمكن فصله من مركّب الحبّ؟

على شاشتي الأمريكيّة رأيت الفلاح الفيتناميّ الذي كان يركض ونار النابالم على جلده أقربُ إليه من زوجته: الحرب،

التي تحرّر وتقتل أولئك الذين تحرّرهم، ربطت بيننا إلى الأبد.

هناك

من المياه الأوّلية صعدنا- أنت وأنا، منذ البداية بدأنا بحثنا وعندما أينعت الحدائق فتشنا معًا عن فيء، ألم نفعل؟

من الرّغبة في الحياة علونا وبنينا أممًا، ألم نفعل؟

ثمّ زارنا مخلوقٌ لم يُسمّه أيّ واحدٍ من الآلهة وسمّيناه «الموت»، فرض علينا سلطانه، وبدأ الخريف يسقط أوراقًا مصفرّةً على أسرّتنا في يومه الأوّل؛ ثمّ حدّقت الأشجار في غربها ولم نستطع أن نُعينها في محنتها، أليس كذلك؟

هناك

أين نحن؟ أين؟ هناك ثمّة «أين»، لأنّنا بكلّ عناد، موجودون، وكان لنا وجود، فمن نحن إن لم نكن أنا وأنت؟

أين نحن؟ خارج التاريخ، خارج قضّته أو قضّتها، وعوذًا إليها، خارجًا في الفضاء، وعوذًا إلى الأرض، خارج الرّحم وبعدها إلى التّراب، من نحن؟

---

3 «الساحل الغربي": يُقصد بها سان فرانسيسكو.

4 خليج سان فرانسيسكو.

5 رَغ الإله الفرعوني.

6 الشيكر shaker: قطعة أثاث أمريكيّ.

7 Parousia: التّجلّي بلغة الإغريق.

مراجع الكتاب

- «يبوس» ويليها القطار السريع بيروت جهنم»: ترجمة أوديت خليفة، ٢٠١٥.
- Jébu suivi de L'Express Beyrouth → Enfer: Ed. P.J. Oswald, Paris 1973
- «قبر ثوري من أجل عمان»: ترجمة أدونيس، مجلة مواقف، عدد ١١ - ١٩٧٠.
- «بيروت ١٩٨٢»: ترجمة شربل داغر، مجلة الكرمل، عدد ٧- ١٩٧٠
- Beyrouth 1982: Published in "And not Surrender", ed. Kamal Boullatta 1982.
- هي بيروت من جديد»: مجلة زوايا، عدد ٨- ١٩٩٠
- It was Beirut All Over Again: Published in "Middle East Report", July-déc. 1993.
- «جنين»: ترجمة أوديت خليفة، ٢٠١٥
- Jennine: Published in French, ed. Al Manar, Paris 2004. Illustrated by Rachid Koraïchi.
- «مكتبة أضرمت بها النار»: ترجمة مي مظفر
- A Library set on Fire: Art book illustrated by Rafeh Nassiri, 2004.
- «موكب مأتمي للفضائي الأول»: ترجمة يوسف الخال، مجلة شعر، عدد ٣٩- ١٩٦٨.
- «قصيدة إلى مایاكوفسكي»: ترجمة فواز طرابلسي، ملحق النهار، ١٥ آب- ٢٠٠٣.
- Mayakovsky: Published in "Enough", ed. Leslie Scalapino, Oakland 2003.
- «موقف الضوء»: ترجمة فايز ملص، ملحق النهار، ١٥ آب- ٢٠٠٤.
- Transcendence: Ed. Al Manar, Paris 2006. Illustrated by Tibari Kantour.
- «هناك» (في ضياء وظلمة النفس والآخر): ترجمة سركون بولص، منشورات الجمل، ألمانيا- ٢٠٠٠.
- There (In the Light and the Darkness of the Self and of the Other): Ed. The Post-Apollo Press 1997.